

ناصريون؟

كمال رفعت



كمال رفعت

ناصريون؟ نعم



الغلاف والإخراج الفنى
عـــادل ثـــابت

تقـــديم

تقدم إلى بعض طلبة جامعة حلوان ببعض الأسئلة التى تمس جوانب حياتنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وتصور الفكر الناصرى للمشاكل التى يواجهها مجتمعنا ، والطريق إلى حلها .

وقد كانت هذه الأسئلة من العمق والادراك الواعى لأبعـــاد المشاكل التى تواجه مجتمعنا فى ظروفه الراهنة بحيث اصبح كل سؤال منها فى حاجة إلى إجابة ضافية توضح المشكلة بكافة نواحيها والحلول المقترحة لحلها .

وقد رأيت تعميما للفائدة أن تطبع الأسئلة واجوبتها فى هذا الكتيب توضيحا للمعالم النظرية فى الفكر الناصرى . وهى وإن كانت لا تغطى كل نواحى هذا الفكر إلا انها تضع بعض النقاط فوق الحروف . أرجو ان تستكمل بشىء من التوسع والعمق فى المستقبل .

والله ولى التوفيق ؟

يوليو ١٩٧٦ — كمال رفعت



(١)

« الناصرية حركة جماهيرية استطاعت أن تطبع بصماتها على الواقع المصرى والواقع العربى »

ما هى الناصرية ومن هم الناصريون ؟

قد يعتبر البعض هذا السؤال سؤالا ساذجا . ولكن هناك هجمة شديدة تشن من اليمين وأحيانا من اليسار على الناصرية والناصريين وتحاول هذه الهجمات من ناحية اليمين تشويههم باعتبارهم بقايا مراكز القوى أو اعتبارهم ماركسيين . ومن ناحية اليسار تشويههم باعتبارهم مؤيدين للارهاب والدكتـــاتورية أو المتأثرين بلا وعى بشخصية عبد الناصر دون اقتناع فكرى . وبالتـــكيد فان لمحاولات التشويه هـــذه تأثيرها على معرفة الجماهير — ومنها جماهير الطلاب — للحقيقة حول الناصرية والناصريين ؟

كانت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ نقطة تحول بالغة الأهمية لا فى تاريخ هذا البلد فحسب ، وإنما فى تاريخ المنطقـــة العربية بأسرها أيضا . ثم ما لبثت أن كانت من القوى الفعالة والمؤثرة على الصعيد الدولى بحكم أهدافها وحيويتها وافعالها . . ومن هنا يمكننا اعتبار أن الفلسفة الكامنة وراء هذه الثورة هى من الطراز الذى يتخطى الحدود الاقليمية للبيئة التى وقعت فيها هذه الثورة .

والناصرية التى كانت تعبيرا عن ثورة يوليو — ليست مجرد فكر نظرى ، بل انها قبل ذلك وأهم حركة جماهيرية استطاعت أن تطبع بصماتها على الواقع المصرى والواقع العربى . كما كان لها تأثير واضح على حركات التحرر فى العالم الثالث . وحينما نريد أن ندرك أبعاد الناصرية ، لايكون ذلك بدراسة وتحليل لكتابات وخطب واقوال الزعيم جمال عبد الناصر ، وإنما يكون أيضا بالعودة إلى الأعمال التى قام بها ونفذها بالفعل .

وقد ترك عبد الناصر تراثا يعتبر مرجعا اســـاسيا إذا جاز التعبير توضيح لنا ما هى الناصرية :

أولا : نصوص مكتوبة يأتى فى مقدمتهـا الميثـاق وبيان ٣٠ مارس وخطبه وأحاديثه الأساسية فى المناسبات الكبرى .

ثانيا : نصوص تطبيقيـة مكتوبة فى صورة القوانين والتشريعـات والقرارات التى رسمت المعالم الأساسية للمجتمـع العربى المتجه إلى الاشتراكية .

ثالثا : مواقفه السياسية فى مواجهة شتى أنواع التحديات السياسية والاقتصادية والعسكرية ، المحلية والعربية والدولية .

هذه الأمور الثلاثة — دون الدخول فى تفاصيل — تشكل معالم الفكر الناصرى أو ما يطلق عليه اسم الناصرية .

وإذا كان المجـال هنـا ليس متاحا لسرد كافة نواحى الفكر الناصرى والتى أبرزنا أهـم ملامحها فى بيـان المنبر الاشتراكى الناصرى . فاننى أستطيع القول أن الناصرية تقوم فى أساسها على عدة مقومات :

— الإيمان بالله ومبادىء الأديان .

— الايمان بالقومية العربية والوحدة العربية .

— إن الناحية المـادية ليست هى العامل الوحيد فى تطور المجتمع وان الفكر ليس مجرد انعكاس للواقع المـادى القائم . ولكن القيم الروحية والفكر الانسانى لعبت وتلعب دائما بجانب الناحية المـادية دورا كبيرا فى تطور العالم . وان التفاعل بين هـذه النواحى الثلاث هو الذى يؤدى إلى تطور المجتمع .

— الايمان بالانسان كصاحب فكر يستطيع ان يلعب دورا أساسيا

فى تطور المجتمع . وأن يصوغ القوانين الاجتماعية التى تحقق ذاتيته وشخصيته فى إطار المجتمع .

— إن حرية الانسان ترتبط بمتطلبات وجوده وذلك بأن يتحرر من **الفقر والحاجة** أى أن يكون لديه الاكتفاء الاقتصـــادى . وأن يتحرر من **الجهل** فان المعرفة شرط من شروط التمتع بالحرية . وأن يتحرر من **الخوف** بحيث يكون آمنا على يومه ومستقبله .

— الارتباط بالتراث . أى الربط بين الفكر الاسلامى والفكر القومى والقضاء على التناقض المفتعل بينهما والذى تستخدمه القوى الرجعية لضرب الفكرة القومية ومبدأ الوحدة العربية .

— التفاعل مع مكونات الحضارة الحديثـــة والانفتاح على الفكر العالمى ليكون ذلك عاملا من عوامل التقدم العربى .

— النظرة العلمية الشاملة لمشاكل المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

— حتمية الحل الاشتراكى حيث أصبح هو الطريق المفتوح — فى ظروف مجتمعنا — لاحداث التنمية الشـــاملة فى المجتمع على أساس علمى .

— تحقيق التوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع فى نطـــاق تحالف قوى الشعب العامل .

وكما كانت الناصرية بالنسبة للقواعد الشعبية راية نضال ، كانت بالنسبة لبعض الزعماء أو المتزعمين والانتهـــازيين ومحترفى السياســـة مادة للتجـــارة ، يأخذون منهـــا ما يناسبهم ويدارون ما لا يناسبهم ، وفى أحيان كثيرة لعبوا أدوارا تخريبية للناصرية ذاتها باسم النـــاصرية . أولئك الذين كانوا لا يفيدونها ، ولـــكن كانوا

يستثمرونها لتحقيق مآرب سياسية محلية أو مآرب شخصية . ومن هنا ظهرت بعض الأخطاء والسلبيات التى يحاول البعض استخدامها لاجهاض أكبر حركة ثورية فى تاريخ الشعب المصرى والشعب العربى .

وعلى العموم فان الناصرية هى حصيلة تجارب وصراعات الشعب المصرى ضد الاستعمار والاقطاع والرأسمالية المستغلة طيلة قرن من الزمان . وكان عليها أن تتزامن مع حركة العصر الذى نعيش فيه .. عصر انتصار الاشتراكية .. عصر الثورة السياسية والثورة الاجتماعية والتى كانت إحدى النتائج الكبرى للحرب العالمية الثانية ..

وكان على الناصرية لكى تشق طريقها بنجاح على الأرض المصرية أن تواجه تحديات الاستعمار والرجعية فى المنطقة العربية باعتبار أن مصر تؤثر وتتأثر بما يجرى حولها من أحداث . ومن هنا تكلم كتاب « فلسفة الثورة » عن الدوائر التى تعمل فى إطارها الثورة المصرية ، وهى الدائرة العربيــة والدائرة الاسلامية والدائرة الافريقية .

إذا فالناصريون ليسوا مجرد بقايا لمراكز القوى أو من مؤيدى الإرهاب والدكتاتورية أو من المتأثرين بلا وعى بشخصية عبد الناصر دون اقتناع فكرى . بل انهم مناضلون فى سبيل مبادىء وقيم عبر عنها عبد الناصر وظل يكافح ويناضل حتى استشهد من أجلها . ناضلوا من أجل مصر وقوميتهم العربية على طريق الناصرية ، ولم يتخذوها وسيلة للاثراء أو للجاه والسلطان كما فعل البعض . لم يتلونوا ويغيروا من مبادئهم وفق الظروف والأحوال وحسب التبديل فى مواقع مراكز القوى ، بل ظلوا مرتبطين بالجماهير فى نضالها من أجل حريتها ومستقبل حياتها .

ولعله من المفيد فى هذا المجال ان تعلم جماهير الشباب والطلاب — الذين لم يعاصروا قيام ثورة يوليو المجيدة — أن جيل الثورة استطاع أن يحقق جلاء الاستعمار البريطانى بقواعده وجنوده عن مصر بعد معارك مريرة على أرض منطقة القنال بعد احتلال دام أكثر من سبعين عاما . وأن يحقق شخصية مصر العربية بعد أن حاول الاستعمار والرجعية طمسها وعزل مصر عن واقعها التاريخى . وأن يحارب سياسة مناطق النفوذ فى الوطن العربى ويحطم الأحلاف العسكرية وعلى رأسها حلف بغداد . وأن يقود الثورة الاجتماعية ، ويحدث تحولا عميقا فى الواقع المصرى ، ويغير خريطة مصر كما لم تتغير فى كل تاريخها . واكد تحقيق سيطرة الشعب علي موارد ثروته وعلى ناتج العمل الوطنى ، وأن يحرر الاقتصاد المصرى من التبعية بعد أن كان نهبا لقوى الاستعمار والاقطاع والرأسمالية . وأن يسترد قناة السويس التى كانت أكبر معاقل الاستعمار الاقتصادى بعد معركة دامية عام ١٩٥٦ . وأن يضع أسس الانطلاق الصناعى والقاعدة العلمية فى مصر لتكون دعامة للاستقلال السياسى . وأن يبنى السد العالى ليفرش الخضرة الخصبة على الصحراء المجدبة . وأن يمد شبكات الكهرباء المحركة فوق وادى النيل من جنوبه إلى شماله . وأن يفجر موارد البترول بعد انتظار طويل وأن يدخل فى صراع مرير ضد الحركة الصهيونية المحتلة فى اسرائيل والمدعمة من الامبريالية العالمية ويحقق انتصار أكتوبر العظيم . وأن يحقق مجانية التعليم فى كافة مراحله بعد أن كان وقفا فقط على القادرين . وأن يحرر الحركات النقابية والعمالية والفلاحية من القيود التى عاقت حركتها لكى تساهم فى بناء المجتمع وغير ذلك من انجازات فى الميادين الاجتماعية والاقتصادية . وأهم من ذلك وضع على قيادة العمل الوطنى تحالف قوى الشعب العامل الذى هو المصدر الدائم لقيادات متجددة ، تحمل أعلام النضال الوطنى والقومى مرحلة بعد مرحلة لتبنى الاشتراكية وتحقق وتنتصر .

هذه هى الناصرية فى ابسط صورها والتى تمتدت أصداؤها ومبادؤها ليس فقط حدود مصر وحدود الوطن العربى بل دول العالم الثالث فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية .

أما الناصريون فهم أولئك الذين يؤمنون بهـذه المبادىء ولم يرتابوا أو يخونوها او يلتفوا من حولها وظلوا صامدين فى مواقعهم

ويكفى جيل الثورة يوليو ١٩٥٢ فخراً أنه حطـم الاستعمار القديم بقواعده واساليبه وعملائه ، وان يطهر الأرض العربية منه . ان جيل الناصريين الجديد يجب أن يعى مستقبل وطنه وامته وان يكون قادرا للقضاء على الاستعمار الجديد الذى بدأ يزحف ويطبق بأياديه القوية على رقاب شعبنا والشعب العربى ليعيده مرة أخرى إلى مناطق النفوذ . لقد أصـبح من الضرورى استمرار الثورة . فالثورة — كما قال جمال عبد الناصر — ليست فورانا عاطفيا وإنما الثورة فى أصالتها : هى علم تغيير المجتمع . ولا يتغير المجتمـع بالغضب على ما كان فيه وعدم الرضا بالأوضاع التى سادته ، وإنما يتغير المجتمع بتحليل علاقات القوى الاقتصادية والاجتماعية فيه ، وإعادة تشكيلها على أسس جديدة لصالح اوسع الجماهير .

(٢)

« الدين عنصر موضـــــوعى من عنـــاصر البنـــاء الاجتماعى •• »

كثرت حملات بعض رجال الدين وبعض قوى اليمين على الناصرية والناصريين ، باعتبار الناصرية ضد الدين أو أن الناصرية أحد القوى المضـــادة للدين مثلهم مثل الشيوعيين ؟

إن المبادىء التى قامت عليها الناصرية تسعى إلى أن يعيش الناس روح الدين لا مجرد مظاهره ، وأن يكون هناك تطابق دائم بين القول والفعل فى الحياة الدينية وفى الحياة العامة . وأن يكون المجتمع فى تقدمه وتطوره صورة كريمة لمـــا أراده الله من خير للناس . وعلى هذا نص الميثاق « لقد كانت جميع الأديان ذات رسالة تقدمية ، ولكن الرجعية التى أرادت احتكار خيرات الأرض لصالحها وحدها ، أقدمت على جريمـــة ستر مطامعها بالدين . وراحت تلتمس فيـــه ما يتعارض مع روحه ذاتها لكى توقف تيار التقدم . إن جوهر الأديان يؤكد حق الانسان فى الحياة والحرية . بل إن أساس الثواب والعقاب فى الدين هو فرص متكافئة لكل إنسان » .

ومن هنا جاء الارتباط القوى فى الناصرية بين الدين والحياة ، فالدين لا يرضى بطبقة تورث الفقر والجهل والمرض لغالبية الناس ، وتحتكر ثواب الخير لقلة منهم . لذلك كان من الضرورى إزالة العقبات والقيود والأغلال التى تحول دون انطلاقة الأمة إلى مستقبلها . فكان من الضرورى إعادة توزيع الأرض الزراعية وقيام قطاع عام يمثل مركز الثقل الاقتصادى فى المجتمع . والقضاء على الاقطاع فى قطاع الخدمات حيث كان العلم والصحة وغيرها سلعا لا يستطيع شراؤها إلا القادر . بل إن العدل نفسه كان سلعة تشترى ، وكان الحصول عليه يحتاج إلى أتعاب ينوء بها كاهل الفقير .

إن إزالة هذه العقبات كانت حتمية وطنية وقومية ، إلا أنها فى نفس الوقت واجب دينى ، تستطيع أن تقرأه فى قول الله تعالى محددا

مهمة الرسول « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر » ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم » (الأعراف — ١٥٧) .

لقد بشر النبى محمد صلى الله عليه وسلم — بالدين الاسلامى وسط بيئة جاهلية لا تعير للمبادىء أى اهتمام ، فجاء هذا الدين ليلغى حكم الطبقة وينشر الخير والمحبة والمساواة فى صفوف المجتمع . ناهيا عن الفحشاء والمنكر والاستغلال ، داعيا إلى التعاون والمشاركة بين أبناء المجتمع فى سبيل الخير والحق والعدل .

وقد ثبت فى الحديث الصحيح عن رسول الله انه قال « الناس شركاء فى ثلاث : « المــاء والكلأ والنار » وفى حديث آخر « والملح » . ويلاحظ ان هذه الأشياء ضرورية لحياة الناس . وليس النص على هذه الأشياء على سبيل الحصر بل ان قواعد الشريعة تقضى بتأميم « ملك الأمة » كل ما كان مثل هذه المواد ضروريا للمجتمع . كما يكره الاسلام تركيز الثروات فى أيد قليلة فى المجتمع . لما يؤدى إليه ذلك من ترف وإفساد واستغلال . يقول الله تعالى فى كتابه الــكريم « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » (الحشر — ٧) وكما فى قوله تعالى « وإذا أردنا أن نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » (الاسراء — ١٦) ويقول المسيح عليه السلام فى بعض وصاياه ومواعظه : « لا يقدر احد أن يخدم سيدين ، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر ، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر . لا تقدرون أن تخدموا الله والمــال » (متى — ٦ — ٢٤) وقد اعتبرت الناصرية حق العمل مبدأ اساسيا من مبادئها تطبيقا لـــما جاء فى قوله تعالى « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » (التوبة — ١٠٥) . كمـــا ربطت الأجر بالانتاج تمشيا مع المبـــدأ الاشتراكى المعروف « من كل حسب قدرته ولكل حسب عمله » فهل هذا يتعارض مع قوله تبارك وتعالى «لكل درجات مما عملوا وليوفيهم

اعمالهم وهم لا يظلمون » (الأحقاف — ١٩) وكما يقول « وما تجزون إلا ما كنتم تعملون » (الصافات — ٣٩) وإذا كان من مبادىء الثورة « إقامة العدالة الاجتماعية » وذلك للقضاء على الاستغلال والاستبداد فى جميع صوره ، وإتاحة الفرصة لكل مواطن فى نصيب عادل من الدخل القومى مع العمل على تحريره من كل قلق يبدد أمن المستقبل فى حياته وحياة أسرته . فقد كانت « التأمينات الاجتماعية » من أهم الوسائل لتحقيق هذه الأهداف جميعا ، فضلا عن الحفاظ على كرامة الفرد وتأكيد حقه فى الحياة الحرة ، وتحقيق كل عناصر الاستقرار والاطمئنان له ولأسرته . وأصبح نظام معاشات العمل يظل جميع العاملين فى حالات الشيخوخة والعجز والوفاة واصابات العمل كما صدرت قوانين التأمين الصحى وتأمين البطالة وغيرها .

كل ذلك كان تطبيقا لمبدأ التكافل الاجتماعى فى الاسلام . حيث يكون المجتمع مسئولا عن أبنائه غير القادرين على العمل لأسباب مختلفة ، وليس لما يفسره البعض من تصدق الأغنياء على الفقراء بما يتنافى مع قوله تبارك وتعالى « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » (البقرة — ١٤٣) ومعنى « وسطا » هنا « عدلا »[1] ويفسر البعض « أمة وسطا » اى أمة ليس بها اغنياء أو فقراء .

لقد كان الانبياء ينشدون مجتمعا لا طبقيا ، تسوده العدالة ويعمه الرخاء وإنا لنجد فى تعاليمهم الأصول الفكرية لاشتراكيتنا المعاصرة . ومن هذا الأساس العريض تنطلق رسالة الدين عبر العصور .. الرسالة التى حملها الأنبياء والمرسلون جميعا . والتى جاءوا بجوهرها والتى أمرنا ربنا أن نؤمن بها وبهم جميعا فى قوله تعالى « قولوا آمنا بالله ، وما أنزل علينا ، وما أنزل إلى ابراهيم

---

(١) لسان العرب — الجزء السابع .

واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم . لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » (البقرة — ١٣٦) .

إن مبادىء الناصرية تمثل عمقا تاريخيا يربط بين حياتنا فى تتابعها ويبرز شأن الدين فى نضالنا الوطنى ، متفاعلا مع المواريث الحضارية عامة والعربية خاصة — دون انغلاق عليها . وإنما أثرتها بالتفاعل الدائم مع الحضارات العالمية دون أن تفقد شخصيتها .

وإذا كان اهتمام الناصرية بالقضايا العالمية . قضايا الاستعمار والتفرقة العنصرية والتخلف الاجتماعى والاقتصادى .. إذا كان لهذا الاهتمام جوانبه الانسانية والحضارية الشاملة ، ففيها أيضا يلتقى جوهر الدين بحقائق الحياة . ويعمل كلاهما من أجل كرامة الانسان حيث يكون .

إن الناصرية تعتبر الدين عنصرا موضوعيا من عناصر البناء الاجتماعى . ووظيفة أبدية للروح الانسانية ، كما أنه يملك تعبيرا ادراكيا وميدانا من ميادين المعرفة . كما انها تعطى أهمية لمغزى تطور التاريخ وحتميته . إلا أن هذا المغزى لا يذوب فى خضم التاريخ نفسه . بل يوجد من القيم والأنماط ما يعلو على مجريات التاريخ . وان الحكم على هذه المجريات يجب أن يكون على ضوء هذه القيم . والمقصود بذلك هو القيم الروحية والخلقية . وهذا ما يميز الناصرية عن غيرها من النظريات المادية التى تعطى أهمية فقط لتطور التاريخ وحتميته . فاذا كان هذا هو فهم الناصرية للدين وارتباطه بالحياة . وإذا كان من أهم أهدافها تحرير الانسان من الظلم وإلغاء الاستغلال عنه . فهل يمكن أن تكون متعارضة مع تعاليم الله ورسالاته السماوية ؟

يقول الميثاق فى هذا الصدد : « إن الرسالات السماوية

لا تتصادم فى جوهرها مع حقائق الحياة . ولكن الرجعية تخلق للدين تفسيرات تتعارض مع حكمته الالهية السامية » .

أما إذا كان بعض رجـــال الدين وبعض قوى اليمين تتهـــم الناصرية بأنها ضد الدين . فان ذلك يرجع إما إلى جهلهم بحقيقة رسالة الأديان ، التى هى ليست مجرد طقوس وتكاليف تؤدى ، بقدر ما هى قيم ومبادىء تتصل بضمير الإنسان وبقلبه ، ومدى علاقته بربه والمجتمع الذى يعيش فيه . وإما انهم يتلقون وحيهم من بعض القوى القابعة فى قصور الرجعية ، والتى يزعجها ما تحمله الناصرية من مبادىء تقدمية وتحررية . إن عاجلا أو آجلا ستقوض هـــذه القصور على رؤوس أصحابها ليستطيع الشعب العربى أن يشق طريقه فى سبيل الحرية والعزة والكرامة .

إن اولئك وهؤلاء ينطبق عليهم قول الله تعالى « لا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون » (البقرة ـــ ٤٠) .

(٣)

« علينا أن نواصل شق طريقنا خلال العديد من الصعاب والعقبات .. »

ما هى قوة الناصريين شعبيا ومدى قدرتهم على الحركة والتأثير فى الجماهير ؟

لقد سبق أن أوضحنا أن الناصرية حركة جماهيرية استطاعت من خلال مبادئها ومواقفها وممارساتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، أن تعبر عن مصالح أوسع الجماهير الشعبية ما يقرب من ربع قرن . بل أنها كانت تعبيراً عن آمال وأهداف الجماهير خلال مراحل النضال المصرى عبر أجيال عديدة .

وقد كانت تجربة النضال الثورى فى بلادنا فريدة فى نوعها ، حيث كان هناك ترابط بين الكفاح المسلح والنضال السياسى ، بل اتخذ أحيانا شكل انتفاضات شعبية شاملة ، بينما فى بعض الأحيان تم الجمع فى وقت واحد بين كل تلك الأشكال النضالية . وقد انعكس هذا بدوره على جماهير شعبنا التى آمنت بالناصرية كطريق للنضال .

وبالرغم من أن قوى الثورة المضادة — منذ رحيل الزعيم الخالد جمال عبد الناصر — أخذت تبذل قصارى جهدها — مدعمة بقوى الرجعية والامبريالية — لتشكيك الشعب المصرى والعربى فى مبادىء وانجازات الثورة الناصرية ، مستخدمة فى ذلك كافة أساليب ووسائل الدعاية والتشهير والارهاب ضد الجماهير ، ومحاولة تضخيم السلبيات التى لا ولم تخل منها أية حركة ثورية فى التاريخ . دون اشارة من قريب أو من بعيد إلى انجازات ثورة يوليو الوطنية والقومية والدولية . هذه القوى التى تمثلت أساسا فى بعض الذين ثبتت عمالتهم بأحكام قضائية ، وآخرين ممن كانوا يؤلبون قوى الاستعمار ضد الثورة والشعب وهم مقيمون فى الخارج على نفقة أجهزة المخابرات المعادية . أو ممن أضيروا نتيجة تملك الشعب زمام أموره السياسية والاجتماعية بنفسه ، أو من بعض العناصر الانتهازية التى تساير كل ركب وتهلل لكل عهد . بالرغم

من هذا كله ظل الناصريون فى الحقول والمصانع وفى المعاهد والجامعات ، وداخل حلقات المثقفين والشباب ، والقوى الوطنية الشريفة فى مواقع العمل والانتاج . متمسكون بمبادئهم رغم الضغوط المادية والنفسية العنيفة التى تعرضوا لها . بل انهم ازدادوا صلابة وقوة واستطاعوا ان يضموا إلى صفوفهم كثيرين من المترددين ، وأن يقنعوا البعض بمنطقهم ومبادئهم ، ولعل من أبرز مظاهر ذلك ، انتشار أندية الفكر السياسى الناصرى فى كثير من المواقع والجامعات بعد أن كانت قاصرة فى مبدأ الأمر على جامعة عين شمس فقط . بل ان ذلك امتد إلى بعض الأقطار العربية التى أخذت فيها القوى الناصرية تلعب دورا بارزا فى مجريات الأحداث فى هذه الأقطار . علاوة على قيام روابط للطلبة العرب المبعوثين الى الخارج فى كثير من البلاد الأوربية .

أن النجاح الذى يتحقق فى هذا المجال هو انتصار بطريقة خلاقة تتلاءم والظروف الموضوعية لبلادنا ، وبيان واضح للحيوية التى لا تقهر للفكر الناصرى . والناصريون الحقيقيون لن يسمحوا لأنفسهم بأن يركنوا الى الراحة قانعين بما تم ، فان قضيتنا الثورية لم تستكمل بعد ، وما زال أمامنا الكثير من الأشياء التى يجب عملها ، وعلينا أن نواصل شق طريقنا خلال العديد من الصعاب والعقبات.

أن قدرة الناصرية على الحركة والتأثير فى الجماهير اخذت تتنامى تلقائيا مستخدمة فى ذلك أساليب الاقناع وليست أساليب الضغط والارهاب والترغيب فى بعض الأحيان . وعليهم أن يقدروا كل المصاعب حق التقدير وأن يكونوا مستعدين للتغلب عليها بصورة منتظمة وبارادة لا تلين . ان القوى الرجعية لديها صعوبات كما أننا أيضا لدينا صعوبات . ولكن صعوبات القوى الرجعية لا يمكن حلها ، ذلك لأن هذه القوى مشرفة على الهلاك وليس لها

مستقبل . أما صعوباتنا فيمكن تذليلها لأننا قوى ناشئة لها مستقبل مشرق .

ان قدرة الناصرية على الحركة والتأثير فى الجماهير تتأتى نتيجة التزامهم ببعض مبادىء العمل السياسى أهمها :

١ — الارتباط بوحدة فكر ، والعمل على ايجاد رأى عام مستنير عن طريق تنمية المستوى الفكرى والاشتراكى للجماهير .

٢ — القدرة على حسن تفسير الأحداث وإدراك الحقائق وتمييز المفاهيم المدسوسة واستبعادها .

٣ — تصفية آثار ورواسب الفكر الاستعمارى والاقطاعى والراسمالى والرجعى .

٤ — ايجاد التفاعل الكامل وتبادل التأثير والتأثر التام مع الجماهير .

٥ — تعبئة قوى الشعب العاملة لتدعيم الثورة وحماية ما انجزته من مكاسب فى الداخل والخارج والقضاء على أسباب الانحراف .

٦ — كشف القوى الرجعية المعادية للإشتراكية واوكارها واساليبها وشل نشاطها ووقف فاعليتها .

٧ — الاحتفاظ المستمر بمستوى حماسة الجماهير وتجاوبهم مع الاشتراكية والتزام العمل بمقتضاها .

ان هذه المبادىء التى التزمت بها القوى الناصرية تحتم علينا أن نكون متواضعين وأن نتحصن ضد الغرور والاندفاع الطائش . وأن نخدم الشعب بكل أمانة واخلاص. ولا ننفصل

عن الجماهير لحظة واحدة ، ونتوخى مصلحة الشعب فى كل عمل نقوم به ، لا لمصلحة فرد أو فئة من الناس . أن المصاعب حقيقـــة واقعة يجب أن نعترف بها وأن نحللها ونكافحها ، وأن نعد أنفسنا للسير فى طرق شاقة ، وألا نطمع فى غنيمة باردة ، فلا يمكن أن نتصور أن الامبريالية والصهيونية والرجعية سيركعون على الأرض بمحض ارادتهم . بذلك تظل الناصرية رافعة اعلامها لتحقق مبادئها فى ظل الحرية والاشتراكية والوحدة .

(٤)

« .. الثورة لا يمكن أن تتوقف قبل
تذويب الفـــوارق بين الطبقــــات
وانهاء كل أشكال الاستغلال .. »

ما هى الاشتراكية فى الفكر الناصرى ؟

لقد بدأت خطوات التغير الاجتماعى والتطور لبناء الاشتراكية فى مصر منذ الشهور الأولى بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . ففى يوم ٩ سبتمبر ١٩٥٢ صدر قانون الاصلاح الزراعى الأول الذى حدد الملـــكية الزراعية بمائتى فدان وصاحب ذلك قانون لتحديد العلاقة بين المالك والمستأجر . وإذا كان القـــانون فى حــد ذاته لا يؤدى بالضرورة إلى بدء التحول الاشتراكى فى مصر . إلا أنه كان يعبر عن تغيير أساسى فى مصر من الناحية الاجتماعية طال انتظاره، قاد فيمـــا بعـــد الى تحقيق خطـــوات اخرى فى طـــريق التطور الاشتراكى . وقد توالت الخطوات بعد ذلك فنقلت اجزاء متتالية من وسائل الانتاج الى ملكية الدولة خلال الفترة بين ١٩٥٦ ـــ ١٩٦٠ ثم حدث التأميم لجزء هام من النشاط الاقتصادى عام ١٩٦١ . كما حدث عدد من التغيرات الأساسية فى علاقات الملكية خاصة وعلاقات الانتاج عموما قبل صدور الميثاق الوطنى فى مايو ١٩٦٢ الذى كان الأساس النظرى للفكر الناصرى . وقد تناول الزعيم الخالد جمال عبد الناصر هذا الفكر بالشرح والتوضيح فى العـــديد من خطبه وتصريحاته بعد ذلك .

وقد بدات كلمة الاشتراكية تتردد على لسان عبد الناصر فى خطبه وتصريحاته بعد القضاء على العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ . وتضمن خطابه فى المؤتمر التعاونى عـــام ١٩٥٧ أهمية احـــداث تغييرات أساسية فى المجتمع لضمان تحقيق العدالة الاجتماعية ومنع الاستغلال . وامام اللجنة التحضيرية فى نوفمبر ١٩٦٠ يجيب على التساؤل أين ومتى تتوقف الثورة قائلا بأنه لا يمكن التوقف قبل أن ينتهى تذويب الفوارق بين الطبقات وقبـــل ان تنتهى كل اشـــكال الاستغلال .

وجاء الميثاق الوطنى عام ١٩٦٢ وأعلن أن هدف الاشتراكية هو تحقيق الحرية الاجتماعية ، وهى لا تتحقق الا بتحقيق فرص متكافئة أمام كل مواطن فى نصيب عادل من الثروة الوطنية . وان تحقيق ذلك لا يتم بمجرد اعادة توزيع الثروة القومية بين المواطنين بل يتطلب أساسا توسيع قاعدة هذه الثروة بحيث تستطيع الوفاء بالحقوق المشروعة لجماهير الشعب العاملة . ويرى الميثاق ان الاشتراكية لها دعامتان أساسيتان : الكفاية أى تحقيق الكفاية فى الانتاج والعدل أى تحقيق عدالة توزيع الثروة القومية .

ويوضح عبد الناصر أهداف الاشتراكية فى خطبه وتصريحاته . ففى حديث للهيئة البرلمانية للاتحاد الاشتراكى العربى فى ١٩ مايو ١٩٦٥ يقول :

« الاشتراكية هى منع استغلال الانسان للانسان ، والاشتراكية هى خلق الظروف والدوافع وتطوير المجتمع حتى يجد الانسان كفرد والمجتمع كمجتمع كل الامكانيات المادية والفكرية والروحية » ويقول فى يوليو ١٩٦٥ « الاشتراكية هى تصفية الفوارق بين الطبقات . ويتكلم فى عيد أول مايو ١٩٦٦ عن استغلال الانسان للانسان فيقول « ان الاستغلال هو أخذ عرق العمال .. العامل اللى بيشتغل وقيمة عمله جنيه بديله ربع جنيه ويأخذ هو — اى الراسمالى — ٣/٤ جنيه » .

ان شروط تحقيق الاشتراكية كما جاءت فى الميثاق وتصريحات جمال عبد الناصر يمكن تلخيصها فى الآتى :

١ — أهمية سيطرة الشعب على كل أدوات الانتاج . وعلى توجيه فائض الانتاج طبقا لخطة محددة . ويوضح الميثاق ان ذلك لا يتطلب التأميم الكامل لأدوات الانتاج ووسائله . الا انه يتطلب قيام قطاع عام قادر يسيطر على قمم الاقتصاد فى

المجتمع لتقود التقدم فى جميع المجالات . ويتحمل المسئولية الرئيسية فى خطة التنمية . وان يعمل القطاع الخاص فى اطار الخطة الشاملة بدون استغلال . بحيث تكون رقابة الشعب شاملة لكلا القطاعين .

٢ — أن يكون التخطيط المركزى الشامل المرتكز على القطاع العام طريقا للتنمية الاقتصادية ، باعتبـــاره الطريق الوحيد الذى يضمن استخدام جميع الموارد ، الوطنية والمادية والطبيعية والبشرية بطريقة علمية وانسانية لكى تحقق الخير لجموع الشعب . كما يقضى على الاتجاهات الطفيلية التى تحاول ان تعيد السيطرة الرأسمالية المستغلة وتعميق الفـــوارق الطبقية . ولكى تتحالف مع رأس المـــال الأجنبى بهدف تصفية استقلالنا الاقتصادى .

٣ — ان التحول الاشتراكى يتوقف على الأســـاس الاقتصـــادى للمجتمع ، وبأساس اقتصادى قوى نستطيع أن نحقق التحول الاشتراكى . ومن أجل أن يكون لدينا أساس اقتصادى قوى فمن الضرورى أن يكون لدينا قاعدة صناعية قوية .

٤ — أهمية أحداث تغيير فى العلاقات الاجتماعية والقيم السائدة ولا يتم ذلك الا بواسطة قوى اشتراكية تمثل الشعب العامل وتتسلح بالوعى الاشتراكى ، وتحل التناقضات التى تواجهها فى مرحلة التحول . كما يتطلب ثورة ثقافية شاملة وتغييرا جذريا فى مناهج التعليم بحيث يصبح هـــدفها هو تمـــكين الانسان من اعادة تشكيل حياته من جديد . كما يجب اعادة صياغة القوانين لتخدم العلاقات الاجتماعية الجديدة . والا يكون هدف شعار ســـيادة القـــانون هو تثبيت الأوضـــاع والعلاقات الاجتماعية القـــديمة ، بل العمل على حمـــاية

المصالح السياسية والاقتصادية والاجتماعية لأوسع الجماهير الشعبية .

٥ — ان يسقط التحالف القائم بين الاقطاع والرأسمالية وأن يحل مكانه تحالف ديموقراطى لقوى الشعب العامل من الفلاحين والعمال والمثقفين والجنود والرأسمالية الوطنية المنتجة . ليكون هذا التحالف الجديد السلطة الممثلة للشعب والدافعة لامكانيات الثورة والحارسة على قيم الديمقراطية السليمة .

لا شك أن تحقيق الأهداف السابقة يحتاج الى فترة ليست بالقصيرة حيث أن التخلف الاقتصادى والاجتماعى الذى ورثناه لا يمكن القضاء عليه الا على مراحل طويلة نسبيا . كما أن الطريق الذى نتبعه لتحقيق الاشتراكية يختلف عن الطرق التى اتبعت فى مجتمعات أخرى . وهنا يتبادر سؤال لماذا كان اختيار الاشتراكية ولماذا اعتبرت الحل الوحيد لحل مشاكلنا ؟ وقد أجاب الميثاق على هذا التساؤل فى فصله السادس « حتمية الحل الاشتراكى » بقوله ان المشكلة الأساسية التى تواجهها مصر هى مشكلة التخلف الاقتصادى والاجتماعى وضرورة تحقيق النمو والتقدم فقد كانت مصر مثلها مثل بلاد العالم الثالث جميعا موضع النهب والاستعمار لفترة طويلة . وكانت الثروة القومية والدخل القومى فى مصر تنمو بمعدلات تقل عن معدلات نمو السكان فيها . وكان من نتيجة الاستعمار أن مصر التى كانت تقف نفس الموقف الاقتصادى الذى تقفه اليابان فى أوائل القرن التاسع عشر قد تخلفت كثيرا عما استطاعت اليابان والعديد من الدول الأخرى تحقيقه ، وبالاضافة الى هذا التخلف فقد كانت الثروة القومية والجزء الأكبر من الدخل القومى مركزا فى يد فئة قليلة لم تكن تتجاوز ١/٢ ٪ من مجموع سكان مصر . وكانوا يتمتعون بنحو ٥٠ ٪ من الدخل القومى . هذا علاوة على أن

الاستعمار البريطانى والفرنسى والأوربى بشكل عام كان يسيطر على المراكز الاقتصادية الاستراتيجية فى الاقتصاد المصرى .

وفى مثل هذه الظروف كان على مصر ان تختار طريقا لتحقيق النمو الاقتصادى والتقدم الاجتماعى . اى تسير فى طريق التطور الراسمالى أو فى طريق التطور الاشتراكى . ويشير الميثاق اشارة واضحة الى أن طريق التطور الراسمالى هو طريق مسدود لا بالنسبة لمصر وحدها ولكن بالنسبة لدول العالم الثالث جميعا . لظروف موضوعية ذكرت بالميثاق .

ومن هنا فان الطريق الوحيد المفتوح لتحقيق التطور هو الحل الاشتراكى . يقول الميثاق : «أن الحل الاشتراكى لمشكلة التخلف الاقتصادى والاجتماعى فى مصر وصولا ثوريا الى التقدم لم يكن افتراضا قائما على الانتقاء الاختيارى . وانما كان الحل الاشتراكى حتمية تاريخية فرضها الواقع وفرضتها الآمال العريضة للجماهير ، كما فرضتها الطبيعة المتغيرة للعالم فى النصف الثانى من القرن العشرين » .

من ذلك يتضح لنا أن الطريق الاشتراكى هو الطريق المفتوح للأسباب الآتية :

— يدعم جوهر الاشتراكية ويمنع السيطرة الاستبدادية ، وفى الوقت نفسه يدعم الانتاج لأنه يطلق حرية المنتجين فى العمل طبقا لقوانين الاقتصاد الاشتراكى ، مما يؤدى الى نمو الاقتصاد الاشتراكى بصورة مستمرة ويتطور فى خط تصاعدى حيث أن الملكية الاجتماعية تكون متوافقة مع الطبيعة الاجتماعية للانتاج .

— ينقذ الاقتصاد الاشتراكى المخطط المجتمع من التبديد الضخم

فى الموارد المادية وموارد قوة العمالة . هذا التبديد الذى تتميز به الرأسمالية ويسير جنبا الى جنب مع أزماتها الاقتصادية .

— ان الاقتصاد الاشتراكى يسير طبقا لخطط مقررة وعلى اساس النسب التى يقررها المجتمع ليضمن بها أقصى حد من سد المتطلبات المادية والروحية والثقافية للشعب .

— أن الاقتصاد الاشتراكى المخطط يعتبر عاملا قويا فى التقدم العلمى والتكنولوجى حيث توجد مجالات كبيرة لتطويرهما . إذ يمكن تركيز القوة العاملة والموارد المادية والمالية لحل المشاكل العلمية والفنية ذات الأهمية على نطاق واسع .

— ان الاقتصاد الاشتراكى المخطط يؤدى الى معدل عال للتنمية حيث يزداد حجم الانتاج الصناعى بمعدلات لا يستطيع النظام الرأسمالى الوصول اليها . وهذا يؤدى الى نمو سريع ومستمر فى الانتاج والى ارتفاع مضطرد للمستويات المادية والحضارية للشعب .

— فى ظل الاشتراكية يمكن استخدام موارد القوة العاملة طبقا للخطة . ويضمن هذا الاستخدام التشغيل الكامل لجميع قوى الشعب العامل . فلا توجد بطالة . وانما على العكس من ذلك فهناك زيادة مستمرة وثابتة فى عدد المشتغلين فى الاقتصاد القومى . يضاف الى هذا أن تدريب الفنيين يجرى وفق خطة موضوعة . وكذلك توزيعهم على فروع الاقتصاد المختلفة مما يؤدى الى رفع المستويات المادية والثقافية للشعب العامل .

— المجتمع الاشتراكى هو مجتمع الحوافز المعنوية . فهذا المجتمع هو الذى يوجد التطابق الكامل بين المصلحة الشخصية لكل عامل فى الانتاج وبين مصلحة المجتمع فى زيادة الانتاج . بينما

المجتمع الرأسمالى المبنى على الربح الرأسمالى والأجر المحدد للعامل يقصر الشعور بهذه المصلحة فى زيادة الانتاج على طبقة الرأسماليين ويستبعد منه الطبقة العاملة التى ترى الجـزء الأكبر من ناتج عملها يعود على غيرها .

— المجتمع الاشتراكى هو مجتمع الحوافز المادية لأنه يربط ربطا وثيقا بين كل زيادة فى دخل الفرد وبين المساهمة التى يساهم بها فى زيادة الانتاج .

— النظام الاشتراكى هو الذى يطلق قوى الانتـاج الـكامنة فى المجتمع . الذى قضى عليها إبان الحكم الاستعمارى والرجعى . ان الشعوب هى العنصر الأساسى فى قوى الانتاج ، فالعمل الانسانى الخلاق هو العنصر الايجابى فى عملية الانتـاج وهو الذى يخلق أدوات الانتاج . أنها قوة انتاجية كامنة تتحـرك عندما تملك مصيرها بين يديها .

— الاشتراكية هى طريق القضاء على الاستغلال والطريق المؤدى الى الحرية . والديموقراطية . فهى ليست الطريق الوحيد للقضاء جذريا على مشكلة التخلف الاقتصادى والاجتمـاعى ولـكنها أيضا طريق الحرية والديموقراطية . لأن الحـرية الحقيقية أساسها التحرر من الحاجة والتخـلص من القلق والاطمئنان الى المستقبل والثقة به . وهى طريق الديموقراطية لأن الديموقـراطية الســياسية هى طريق المحافظـة على الاستقلال الوطنى وتدعيمه .

— الاشتراكية هى طريق المحافظة على الاستقلال الوطنى وتدعيمه فى مواجهة القوى الاستعمارية العدوانية التى تعمل دائمـا للتآمر وتحسس مواطن الضعف لتتسلل من جديد الى مواقعها القديمة . ولمواجهة حركة الاحتكارات الرأسمالية العالمية والتى

تهدف الى ربط اقتصاديات الدول النـــامية أو الدول حـــديثة الاستقلال باقتصاديات الدول الرأسمالية الكبرى وجعلها توابع لها . ان الاستقلال الوطنى لا يمكن المحافظة عليه وتدعيمـــه إلا على أساس التحرر الاقتصادى واقامة القاعدة الاقتصادية الوطيدة التى تتكفل بحمايته وتقيم مجتمعا بعيدا عن السيطرة والتبعية الاستعمارية .

(٥)

« .. والصراع الحتمى والطبيعى
بين الطبقــات لا يمكن تجاهله أو
انــكاره ، وإنمــا ينبغى أن يكون
حله ســلميا فى إطــار الوحــدة
الوطنيــــة وعن طــريق تذويب
الفوارق بين الطبقـــات ... »

ما هى وجهة نظر الناصرية فى حتمية الصراع الطبقى ؟

لقد جعل الصراع الطبقى الذى مر على المجتمعات البشرية كثير من المفكرين والفلاسفة يحللون هذه الظــاهرة ويعتبرون أن وجود الطبقات يؤدى حتما إلى قيام الصراع فيما بينها فى ســبيل السيطرة والقوة . غير ان بعضا منهم حلل هذه الظاهرة بعــوامل غير اقتصادية — فمنهم من ارجعها إلى عوامل دينية أو نفسية أو إلى مستويات المعيشة المتباينة داخل المجتمــع الواحد أو بالنسبة لظروف اجتماعية معينة .

إلا أنه مما لا شك فيه أن العامل الحاسم فى ذلك هو العامل الاقتصادى ، اى العلاقة القائمة بين الطبقات ووسائل الانتاج فى المجتمع .

ونحن إذا نظرنا إلى المجتمع الاسلامى فى بدء ظهوره نجد أن هذه الظاهرة وهذا الصراع كان قائما بين من حملوا رسالة الاسلام على حقيقتها كثورة اجتماعية تهدف إلى تحقيق العدالة الاجتماعية وعدالة التوزيع لناتج وسائل الانتاج التى كانت قائمة فى ذلك الوقت ، وهى الأرض ، وبين من انضموا إلى الاسلام لا حباً وإيمانا به بل لمحاولة احتوائه وتوجيهه إلى نظام اقتصادى واجتماعى معين يحقق لهم السيطرة الاقطاعية ثم السيطرة السياسية بعد ذلك .

وكانت وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام إيذانا ببدء هــذا الصراع وقيام الثورة المضادة للاســـلام والتى كانت أولى بوادرها ارتداد البعض عن الاسلام واتخاذهم مواقف معينة ضد الصـــحابة واهل البيت . إلا ان وقوف أبى بكر الصــديق (رضى الله عنه) وتصديه لهذه الثورة المضادة وقضائه عليها فى مهدها بعد سلسلة من المعــارك المعروفة (بحرب الردة) أمكنه أن يحفظ الاســـلام ويصونه ويعيد الوحدة إلى المسلمين . إلا أن أعداء الاسلام وإن لم

يستطيعوا أن يطفئوا الاسلام في جوهره وعقيدته فقد أخذوا يعملون لطعنه كثورة اجتماعية تهدف إلى تحقيق العدالة والحرية والمساواة بين الناس . فاتخذوا سبيل العنف في ذلك وقاموا بسلسلة من الاغتيالات أودت بحياة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب (رضى الله عنهم) وبموت الأخير انحرف المسلمون عن ثورتهم الاجتماعية فقامت الدولة الأموية نسبة إلى معاوية بن أبى سفيان والذى كان أبوه أبى سفيان من أعدى أعداء الاسلام والرسول (عليه الصلاة والسلام) .

وبقيام الدولة الأموية عاد الاقطاع مرة اخرى يبسط نفوذه على المجتمع الاسلامى وقامت الخلافة بالوراثة التى كانت بعيدة عن روح الاسلام وتعاليمه .

لقد قام الاسلام على مبادىء اجتماعية واقتصادية معينة فهو يضع حدا لتملك رأس المال ويمنع سيطرته على الحكم كما جاء فى سورة الشورى « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ، ولكنه ينزل بقدر ما يشاء ، إنه بعباده خبير بصير » .

وكما جاء فى سورة الاسراء « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

كما حمل القرآن على اكتناز الأموال والمكتنزين لها مما يؤدى إلى حبسها عن النشاط الاقتصادى كما جاء فى سورة التوبة « الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله نبشرهم بعذاب أليم » . وما جاء فى سورة البقرة « وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » .... هذا ولم يعترف الاسلام بوجود الطبقات الاجتماعية ولكنه نص على تفاوت الدرجات بين الناس تبعا لما يؤدونه من أعمال كما جاء فى سورة الأحقاف « ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون » كما جعل الجزاء مقترنا

بالعمل وهذا ما يبدو فى قوله تعالى فى سورة الصافات « وما تجزون إلا ما كنتم تعملون » ..

إن الاسلام لا يمكن قطعا أن يبيح نظام الطبقات لأن هـذا النظام يتنافى مع ما أعلنه الاسلام وخاطب به الناس والشعوب جميعا من مبادىء المساواة والحرية والمشاركة فى التمتع بالحيـاة ومنع التمييز والتفرقة والاستغلال بين الناس .

وقد اعترف الاسلام ضمنا بوجود الصراع الطبقى على أساس اقتصادى وعلى أساس علاقة الانسان بوسـائل الانتاج وما يؤديه هذا الصراع من تدمير للمجتمعات الانسانية كما سبق أن بينا فى آيات القرآن البينات .

ومن هذا يتضح لنا أن نظرية الصراع الطبقى لم تكن جديدة علينا أو دخيلة على فكرنا بل هى أصيلة فى هذا الفكر ونابعة منه . ولعل فى استعادة كثير من الأحاديث النبوية الشريفة وما قاله السلف الصـالح من علماء المسلمين فى هذا الشأن ما يوضح لنا الكثير مما قيل فى هذا الموضوع .

وعلى هذا فليست هى « إرادة الله » أو طبيعة الانسان التى تجعل من البعض طبقات مستغلة تعانى البؤس والفقر والحرمان وآخرين طبقات مستغلة تتمتع بثمرات الحياة على حساب الآخرين كما يحاول بعض المفكرين والكتاب إبراز ذلك .

وقد حاول البعض أن يجعل من الفكرة القومية الأساس الذى يقوم عليه الاستقرار الاجتماعى فى المجتمعات البشرية دون وضع أى اعتبار لمسألة الصراع الطبقى داخل هذه المجتمعات ، وأعطائها أهمية ثانوية بالنسبة للمسألة الأولى . إن هذه النظرة خاطئة من أساسها لأنها تتجاهل الواقع الموضوعى الذى تعيشه هذه المجتمعات

كما انها تتجاهل عاملا هاما من عوامل تطور المجتمعات الانسانية وهو العامل الاقتصادى أو المادى ؛ علاوة على تجاهل عامل الفكر الانسانى . وخطأ هذه النظرة يرجع أولا إلى أن الفكرة القومية — كما هى الحال بالنسبة لمسألة العلاقات الطبقية لم تكن نتيجة ظروف داخلية بل نتيجة تطورات تاريخية بعيدة فى المجتمعات البشرية .

فظهور المجتمعات الانسانية يرتبط ارتباطا وثيقا بطبيعة النظام الاجتماعى والتغييرات التى تحدث فيه . فالمجتمعات البدائية الأولى كانت تقوم على أساس العائلة أو القبيلة والتى كان يرتبط أفرادها فيما بينهم بصلة عنصرية أو بصلة الدم . وبانهيار هذا النظام انهارت أيضا النظم القبلية وضعفت بالتالى رابطة الدم التى كانت تشكل مثل هذه المجتمعات .

وقد أدى اندماج هذه المجتمعات البدائية فى بعضها البعض إلى قيام الشعوب القومية وقد قامت القوميات على أسس وأركان تكلم عنها كثير من المفكرين مثل (اللغة — الدين — البيئة الجغرافية — الثقافة — المصالح المشتركة — الآمال المشتركة .. الخ) والتى هى تنبع فى الواقع من أساس تاريخى واجتماعى . وبالرغم من ذلك فقد ظلت وحدة المجتمعات القومية غير مستقرة . ففى المجتمع العبودى والمجتمع الاقطاعى استمر الصراع قائما لافتقار هذه المجتمعات إلى نوع من وحدة الحياة الاقتصادية اللازمة لضمان الاستقرار فيها . ولم تتبلور هذه المجتمعات إلى شعوب إلا فى ظل النظام الراسمالى الذى استطاع أن يقضى على النظام الاقطاعى ويقيم فيهما سوقا قومية واحدة . ولتفادى الصراع الطبقى فى المجتمعات البورجوازية الجديد ابتكر مفكرو هذا النظام فى وسيلة جديدة للمحافظة على وحدته فأضافوا ركنا جديدا من أركان القومية وهو الجنس (العرق) وذلك لالهاب مشاعر الجماهير ومحاولة استخدامها فى المغامرات والحروب الاستعمارية التى صاحبت قيام هذا النظام فى القرنين الثامن عشر

والتاسع عشر وفى القرن العشرين .. ففى القرن الثامن عشر كانت القوميـــة الفرنسية التى انبثقت عن الثورة البورجوازية الفرنسية تلعب الدور الأكبر فى هذه الحروب .

وفى القرن التاسع عشر لعبت القومية الانجليزية هذا الدور تحت شعار تحمل (الرجل الأبيض) مسئولية بناءالحضارة الانسانية. وقد حاولت القومية الألمـــانية فى القرن العشرين خصوصا فى الحرب العالمية الثانية القيام بهذا الدور باسم سيطرة الجنس الجرمانى على بقية الأجناس كما وضح فلاســفة ومفكروا هذه النظرية أمثــال (نيتشة) و (روزنبرج) من فلسفات عن مجتمع السادة والعبيد والانسان الأعلى وغير ذلك من ترهات .

إن مثل هـــذه النظريات التى قامت على أســـاس أن بعض الأجناس أو الشعوب تتميز عن غيرها وان الشعوب الملونة فى حاجة دائمـــة إلى الجنس الأبيض لكى يقودها ويوجهها فى الحيـــاة غير صحيحة من الناحية العلمية ومن الناحية التاريخية التى اثبتت أن كل الشعوب فى العالم قادرة على إقامة الحضـــارات وخلق القيم الثقافية والانسانية . وان ما تقدمه هذه الشعوب إلى الحضـــارة الانسانية من ثقافة وقيم لا يرجع إلى لون البشرة أو شكل الجمجمة بل يرجع إلى تطور هذه الشعوب تاريخيا .

من كل هذا يتضح لنا أن المجتمع القومى ـــ كما يفهمه فلاسفة البورجوازية ـــ لا يمكنه بأى حال من الأحوال أن يقضى على الصراع الطبقى فى داخل الشعب الواحد ـــ بل بالعكس أنه يفتت هـــذا الشعب إلى معسكرات متقاتلة يتحين كل منها الفرصة للانقضاض على الآخر ما لم يكن هذا الصراع أو العداء موضع اعتبار وفهم عند قيام الحركة القومية .

ومن ناحية أخرى يوجد تضامن بين الطبقات المستغلة تتعدى حدود الوطن الواحد .

فالاستعمار العالمى الذى يشكل تضامن بين بعض القــوى الرأسمالية الكبيرة ــ رغما عن اختلاف قومياتها ــ يسعى دائما إلى استغلال الشعوب وسلب ثرواتها وفى أحسن الأحوال فانه يفرض عليها التخلف متعاونا فى ذلك مع الطبقات الرأسمالية والاقطاعية فى هذه الشعوب .

لذلك كانت الحركة القومية العربية ذات المحتوى الاشتراكى واعية لهذه المخاطر فكانت أهم مبادئها التى انبثقت عن ثورة ٢٣ يوليو ضرورة القضاء على الاستعمار وأعوانه من الخونة والقضاء على الاقطاع والقضاء على سيطرة راس المــال على الحكم وإقامة عدالة اجتماعية وإقامة حياة ديموقراطية سليمة . وقد استطاعت الحركة القومية العربية تحت الظروف القاسية التى تعيشها الأمة العربية أن تحقق كثيراً من الانتصارات رغما عما يتساءل به البعض عما قدمته للثورات العربية .

ويحاول البعض أن يسخر الحركة القومية العربية لخــدمة الاحتكارات البترولية العالمية باقامة امبراطورية من الدول المنتجــة للبترول . كما يحاول البعض الآخر أن يستخدمها مطية للاستعمار الجديد بعد أن فشل الاستعمار القديم فى المحــافظة على قواعده وامتيازاته وعملائه .

إن الحركة القومية العربية بمفهومها التقدمى ضــمانة لحق الشعوب فى تقرير مصيرها وعامل على استقرار السلام على أساس من العدالة والحرية والمساواة ؛ ولم تعمل على استعباد الشعوب الأخرى واستغلالها أو تتخذ العامل العنصرى أو عامل الجنس ركنا من أركان مقوماتها .

وقد قال جمال عبد الناصر فى كتاب فلسفة الثورة « وإذن فنحن أقوياء ليس فى علو صـــــوتنا حين نولول ولا حينن نصرخ ولا حين

نستغيث ، إنما أقوياء حين نهدأ ، أو حين نحسب بالأرقام مدى قدرتنا على العمل ، وفهمنا الحقيقى لقوة الرابطة بيننا ، هذه الرابطة التى تجعل من أرضنا منطقة واحدة لا يمكن عزل جزء منها عن كلها ، ولا يمكن حماية مكان منها بوصفه جزيرة لا تربطها بغيرها رابطة .... »

وانقسام المجتمع إلى طبقات هو ظاهرة تاريخية عارضة رغما عن أن البعض يقول انها ظاهرة موجودة منذ الازل . فمن المعروف أن تقسيم المجتمع إلى طبقات لم يكن موجودا فى المجتمعات البدائية كما أنه غير موجود فى المجتمعات الاشتراكية ، فأساس قيام الطبقات يرجع إلى وجود الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج التى تؤدى بالتالى إلى استغلال الفرد للفرد أو استغلال مجموعة من الأفراد لمجموعة أخرى لصالحها الخاص . وقد كان لا يمكن تفادى تقسيم المجتمع إلى طبقات فى مرحلة معينة من مراحل تطور المجتمعات البشرية — بل كان ذلك ضروريا ولازما — حيث كانت القوى المنتجة ضعيفة وتعتمد على وسائل إنتاج يدوية ولم تكن تستطيع تحقيق فائض يذكر من هذا الانتاج ، وحيث كان جزء من المجتمع يقوم بادارة هذه القوى المنتجة أو يعمل بالتجارة أو الشئون العامة الأخرى ، وفى مرحلة اخرى اهتم هذا الجزء بتطوير العلوم والفنون والقوانين .. الخ . ولكن منذ ان بدأت الثورة الصناعية تشق طريقها وأصبح الانتاج يعتمد على الآلة وعلى أعداد كبيرة من العمال واضطرار العمال الحرفيين إلى ترك أعمالهم والانضمام إلى جيوش العمال العاملة فى المصانع ، وووجه المجتمع بمشكلة إيجاد التوازن بين طبيعة الانتاج الجماعية الجديدة والملكية الفردية لراس المال . وازداد التناقض داخل المجتمع حيث كان هدف الراسماليون الحصول على اكثر فائض أو ربح من إنتاج مصانعهم على حساب الآلاف المؤلفة من العمال التى تعمل بالمصنع . ومن هنا كان من الضرورى لازالة هذا التناقض أن تصبح ملكية رأس المال جماعية لتتوازن مع طبيعة الانتاج الجماعية .. وبذلك تختفى

الطبقات المستغلة وتذوب الفوارق بين الطبقات وتزول العراقيل التى تعوق تطور المجتمع .

وتنقسم المجتمعات غير الاشتراكية عادة إلى طبقتين أساسيتين وهما فى المجتمع العبودى طبقة السادة وطبقة العبيد وفى المجتمع الاقطاعى طبقة الاقطاعيين وطبقة الفلاحين وفى المجتمع البورجوازى طبقة الراسماليين وطبقة العمال . اى ان الوضع الطبقى فى هذه المجتمعات عبارة عن طبقة تمتلك وسائل الانتاج الرئيسية وتمارس فى الوقت نفسه السلطة السياسية بينما الطبقة الأخرى تتكون من الجماهير المستغلة . والعلاقة بين هاتين مثلا تظل دائما عدائية وقائمة على الصراع فيما بينهما . ففى المجتمع البورجوازى مثلا نجد ان طبقة الراسماليين تسعى إلى إجبار طبقة العمال على إنتاج اكبر كمية من الانتاج بأقل أجور ممكنة بينما ان طبقة العمال تسعى دائما عكس هذا الاتجاه ومن هنا ينشأ الصدام المستمر بينهما الذى يهز كيان المجتمع ويمنع الاستقرار فيه .

لذلك كان الصراع والتناقض الطبقى أمر حتمى فى المجتمعات البورجوازية لابد من القضاء عليه ليستطيع المجتمع ان يسير فى طريق البناء الاشتراكى . إن اشتراكيتنا تؤمن بذلك — وقد استطاعت أن تحل هذا التناقض بالوسائل السلمية وليس بالصراع الدموى . وكما جاء فى الميثاق « الصراع الحتمى والطبيعى بين الطبقات لا يمكن تجاهله أو انكاره ، وإنما ينبغى أن يكون حله سلميا فى إطار الوحدة الوطنية وعن طريق تذويب الفوارق بين الطبقات » .

إن زوال الطبقات المستغلة لا يمنع اطلاقا من وجود عناصر جديدة لها تطلعات طبقية تسعى دائما لتحل محل الطبقات القديمة بحكم اتصالها السابق بهذه الطبقات وتأثرها فكريا بها . وهى عبارة عن قشور طبقية تريد أن تتراكم لتشكل طبقة جديدة لتعاود الاستقلال مرة أخرى .

وهى إذا كانت تحالفت فى المــاضى مع طبقات العمال و الفلاحين فانها يجب أن تتمسك بتحالفها هذا وإلا انفصلت عن قاعدتها الشعبية الوطيدة .

وهى فى محاولتها التخلص من هذا التحالف تنادى بأن ثورتنا ترفض مبدأ الصراع الطبقى وتحل التعاون بين الطبقات محل هذا الصراع . وقد جاء فى الميثاق « إن الرجعية ما زالت تملك من المؤثرات المــادية والفكرية ما قد يغريها بالتصدى للتيار الثورى الجــارف خصوصا فى اعتمادها على الفلول الرجعية فى العالم العربى المسنودة من جانب قوى الاستعمار .

إن تطورنا الثورى هو الذى يؤكد ضرورة تمسكنا بالمبــادىء والقيم التى نادى بها الميثاق . إن الميثاق يقول « إن التقدم هو غاية الثورة . والتخلف المــادى والاجتماعى هو المفجر الحقيقى لإرادة التغيير والانتقال بكل قوة وتصميم مما كان قائما بالفعل إلى ما ينبغى أن يقوم بالأمل » .

(٦)

« إن العرب فى حاجة إلى تضامن صحيح لا إلى تضامن صورى .. »

ما هو دور الناصرية فى العالم العربى .. وكيف تلعب دورا نشيطا ومتناميا فى حركة القومية العربية التى فجرها جمال عبد الناصر ؟

ان الدافع القومى للأمة العربية ، أمر لا يختلف عليه اثنان ، ولست هنا فى مجال بيان عوامل هذه القومية ، فقد أصبحت هذه العوامل راسخة فى ضمير الشعب العربى ووجدانه . ولم تصبح القضية فى عصرنا الحاضر ، هى إثارة هذه العوامل ، بقدر ما هى اتخاذها منطلقا لبناء حضارى جديد هدفه المستقبل ، نافضا عن نفسه غبار التخلف . متحررا من كافة عوامل القهر والاستغلال بحركة ثورية دائبة ، ترسى دعائم فلسفة جديدة بفكر جديد يحطم كافة العقبات ، وما ران على الفكر العربى من جمود . تشده الرجعية دائما الى الوراء تارة باسم التراث وتارة باسم الدين — والدين من ذلك براء — وتارة أخرى بمهاجمة الحضارات الحديثة — والفخر المبالغ فيه بالماضى ، وذلك هروبا من منطلقات وتبعات بناء مجتمع وحضارة حديثة تحتاج الى جهد وفكر وعلم ، أصبح المجتمع العربى ببنائه الاجتماعى المتخلف ، غير قادر على مواجهتها والتصدى لها . وكما يقول « توفيق الحكيم » الذى استوعب التجربة أخيرا « ان كثرة الكلام عما يسمى بالانحلال الحضارى الأوربى هو محاولة لاراحة أنفسنا من سباق النشاط الحضارى الحقيقى لأوربا والعالم » .

وإذا كان الواقع القومى العربى هو حقيقة تاريخية منذ أقدم العصور ، تباين ظهوره فى مراحل التاريخ المختلفة نتيجة عوامل داخلية وخارجية . فان ذلك لا يغير من حقيقة انتماء الشعب العربى الى هذه القومية ، رغم كثير من المحاولات لطمس معالمها . بابراز اتجاهات مختلفة كان مصيرها جميعا الفشل .

ومن الواضح ان القومية العربية كغيرها من القوميات مذهب عقائدى ، ومن الواجب ايضاحه خارج نطاق الأفكار التى تؤلفه . **وليست اختبارات اللغة والوعى التاريخى وغيرهما من الخصائص القومية الا تطبيقات للفكرة القومية** . وكلها يعتمد على التقبل المسبق لوجود الأمة كعامل فى المجتمع السياسى . ومهما قيل عن القوميات الحديثة فان هناك نتيجة مذهبية موضوعية واحدة للقومية يكاد يكون الاجماع كاملا عليها ، وهى انها — أى القومية — **تضع الحدود للمجتمع السياسى** .

وقد واجه تحديد الشخصية الذاتية للقومية العربية عدة مصاعب ، اهمها بعض المفاهيم الدينية الخاطئة التى كانت ترى أن البحث فى الشخصية والذاتية النفسية موضوع محظور فى الاسلام من الناحية الثقافية وظهرت مدارس فكرية كثيرة لكلا الاتجاهين مما مكن الاستعمار من استغلال هذه الفرقة لتثبيت اقدامه فى الوطن العربى وفى اجزاء كبيرة من العالم الاسلامى .

والشىء الواضح هو ان أوربا كانت فى نهاية القرن التاسع عشر تضم فى غالبها دولا قومية واعية لذاتها ، بينما لم يكن الشرق العربى على هذا النحو . وكانت أوربا الغربية قد غدت بلادا صناعية بينما لم يكن الشرق العربى قد وصل هذه الدرجة من التطور ، وبينما كان الغربيون يفكرون على صعيد نظام طبقى مؤلف من ثلاث طبقات اجتماعية كان العرب يفكرون فى غذائهم أولا ، وفى تصنيف مهنى معقد ثانيا . وكانت القوميات التى يتحدث عنها الأوربيون قد ظهرت كاملة ملموسة على الصعيد السياسى . بينما ظلت القومية فى الشرق لفظة مطلقة لا تمت الى الواقع ، وظلت فكرة الأمة العربية مفتقدة فى ذلك الحين .

وقد اتضح للكثيرين فيما بعد أن فكرة الجماهير ترتبط ارتباطا تاما بمشكلة الشخصية القوميـــة ، وذلك لأن الشخصية مشكلة فردية فى أساسها ، ولا يتوافر وجود الجماهير التى تشكل المحتوى السياسى لأى مجتمع — الا بعد أن تغدو المشكلة القومية مشـــكلة واسعة . وذلك لمواجهة التحديات المفروضة من الخارج .

ولم تكن القومية العربية عند المسلمين الرد الفـــورى على الضغوط الغربية . فعلى النقيض من ذلك جرت المحاولة لبعث اسلامى سياسى ثم تلتها محاولة أخرى لاصلاح النظرية القانونية والفلسفة فى الاسلام . لتتقبلا متطلبات المجتمع الحديث ونظرته الاقتصادية ومؤسساته الفكرية . وارتبط السيد جمـــال الدين الافغانى بالمحاولة الأولى وهى حركة الجامعة الاسلامية ، بينمـــا ارتبط الشيخ محمد عبده بالمرحلتين اللاحقتين . وقد تولى الشيخ محمد رشيد رضا تفسير آراء الرجلين ، ولا سيما آراء الأفغانى ، وان شاب تفسيراته بعض الخطأ لتأثره بالمذهب الوهابى الذى ظهر فى الجزيرة العربية . وكان هدف الحركات الثلاث تجديد الحيوية عند المسلمين وخلق الاحساس لديهم بالكرامة والعصرية والتضامن والحفاظ على القيم الدينية . ولا ريب فى أن هؤلاء القادة الثـــلاثة من قادة العصرية الاسلامية ، رغبوا فى أن يؤدى الاسلام فى وجه القومية العربية دور الفكرة القومية .

وقد منيت جهودهم بالفشل نتيجة أسباب عدة ، منها زوال الخلافة العثمانية واطماع بعض الحكام العرب ، واحتلال بريطانيا لمصر . والانشقاق الذى حدث فى وجهة النظر بين الصفوة السلفية التى ضمت علماء الدين والتى جعلت اعتمـــادها الأســـاسى على الدين ، وبين العصريين من المثقفين ثقافة غربية . ولم تحقق فكرة الجامعة الاسلامية أهدافها ولكن أنصارها نجحوا فى ايجاد تفسير جديد للفكرة الاسلامية الى الحد الذى بات فيه دعاة القـــومية من

المسلمين والمسيحيين على السواء ، يعتبرون الشخصية الاسلامية جزءا لا يتجزأ من القومية العربية . وقد استخدمت تعابير الارادة والعقل والتاريخ والطبيعة الفلسفية لسد الثغرة بين الفلسفة الاسلامية والفكرة القومية . ولعل من مظاهر ضعف الفكرة القومية فى ذلك الوقت ، نفس المظاهر التى نشأت فى سائر القوميات الأخرى . والتى حدثت بتأثير الازدواجية الكامنة فى الشخصية والمجتمع وبتأثير الاحاسيس الذاتية والنسق المتعارف عليه فى المجتمع الانسانى .

لا شك أن مصر وشعب مصر يحتلان مكانا بارزا فى نطاق الواقع القومى العربى ، وفى هذه المنطقة من العالم ، لعدة عوامل مختلفة ومعروفة يعيها الشعب العربى من المحيط الى الخليج ، ولم تكن هذه المكانة وليدة العصور الحديثة ، بل هى قديمة قدم التاريخ نفسه .

فيقول « ساميفيل » فى كتابه « كنوز مصر » : « لقد توصل الانسان شيئا فشيئا بفضل احتكاكه بالعالم الخارجى ، وبعد كثير من التحول والتغيرات الجوهرية الى تعريف نفسه بنفسه والى الشعور بانسانيته . وما من شعب صمد بشجاعة كالشعب المصرى فى وجه غائلات الزمن وسلطان المادة . إن تاريخ الشعب المصرى ليس فى مجموعه سوى محاولة للانتصار على الزمن وتخطى المادة . وقد لعب فى مكانه دورا أساسيا فى تطور الجنس البشرى ، ولو لم يحقق ما حققه لما وصلنا الى ما نحن عليه » . ويواصل « ساميفيل » كلامه : « ولكن من هذا الوجه الأجدع للاله الشاب المختار بين الكثيرين غيره ، ومن هذه العيون المنطفئة ، وهذه الشفاه المطبقة الصامتة التى لن تنفتح أبدا ، ينبعث بقوة شمسية ، السهم الذهبى المثلث لرسالة تخطت حدود الزمان والمكان والعقل لتصل أخيرا إلينا ، انها رسالة الجمال والحكمة والصمت » .

فالشعب المصرى بأصالته وصلابته كان دائما وسيظل حجر الزاوية فى بناء مستقبل هذه المنطقة . وقد مر — كما مر غيره من الشعوب العربية — بفترة البلبلة الفكرية والازدواجية بين الفكر الإسلامى والفكر القومى العربى ، مما حد من قدرات انطلاقه فى مرحلة استغلها الاستعمار لتكريس وجوده وتدعيم سلطانه فى المنطقة . وكانت الدول الأوربية الاستعمارية قد وقعت معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ بهدف عزل مصر وتقييد حركتها داخل حدودها ، كيلا يقوم فى المنطقة من يرث الرجل العثمانى المريض ، ويترك ذلك لأطماع الدول الاستعمارية ، ولم يكن محمد على فى سعيه لانشاء امبراطورية تضم بلاد الشام والجزيرة العربية والسودان . ايمان بالقضية العربية ولكنه كحاكم اقطاعى عاش فى ظروف ارتباط المجتمعات الاقطاعية الشرقية بالسوق الراسمالى الأوربى الأخذ فى الانتشار استهدف تحقيق أهداف الدولة الاقطاعية القديمة فى التوسع الاقليمى بوسائل جديدة .

الا أنه من الثابت أن أهداف معاهدة سنة ١٨٤٠ هى فرض التجزئة فى هذه المنطقة من ناحية الحكم ومن ناحية الحركات الشعبية . وقد تلا ذلك احتلال مصر بواسطة بريطانيا سنة ١٨٨٢ وعقد إبان الحرب العالمية الأولى اتفاق سايكس — بيكو الذى يقسم أرض سوريا والعراق بين بريطانيا وفرنسا ، كما صدر وعد بلفور بانشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، بذلك فتت النضال العربى وتبعثرت جهود القوى القومية ، وأصبحت المشكلة الوطنية تحتل المقام الأول فى كفاح كل شعب عربى على حدة .

وقد مر الفكر المصرى فى غضون القرن الأخير باعظم درجة من التحول وأن كان الوضع فى البلاد العربية الأخرى ، لم يختلف كثيرا عن وضع مصر ، وأن كان أقل غموضا . ففى مصر التابعة اسميا للسلطان — الخليفة العثمانى . أخذ الخديويون يتطلعون

الى مزيد من الاستقلال والى رفع مرتبتهم ، هادفين الى الوصول الى مرتبة الملكية . وقد تحولت هذه المطامع التى كانت سببا فى الكثير من إجراءات التعصير التى وقعت فى القرن التاسع عشر ، إبان الاحتلال البريطانى ، الى رغبة فى تحقيق الاستقلال عن بريطانيا بمساعدة السلطان العثمانى . كما كان يتطلع الملك فؤاد فى مستهل القرن العشرين الى الوصول الى مرتبة الخلافة بعد الغائها فى تركيا سنة ١٩٢٤ . الا أن دعاة القومية والحركة الوطنية فى مصر كانوا يتوقون الى الخلاص من النفوذ الأجنبى والى تحديد سلطات الملك وصلاحياته . وادت تجزئة البلاد العربية فى الهلال الخصيب واقتسامها بين الانتدابين البريطانى والفرنسى ، الى تثبيط العزائم فى التفكير بأى تعاون مع البلاد العربية فى فترة ما بين الحربين .

وكان المثقفون والكتاب المصريون يبحثون عن شعار مناسب لتجسيد القومية المصرية . وراحوا يتشبثون فى مرحلة من المراحل ببعث الفكرة الفرعونية القديمة ، وهى فكرة لا تلقى أى صدى الآن وآمنوا بالفكرة التى دعا اليها الدكتور طه حسين ذات يوم والتى باتت منسوخة الآن ، وهى أن مصر تؤلف جزءا لا يتجزأ من حضارة متوسطية (البحر المتوسط) واسعة . وكان هناك مع ذلك فى الثلاثينيات اتجاه أكثر قوة من الاتجاهين الآنفى الذكر الى الشعارات الاسلامية عن طريق الكتب التى تناولت سير حياة الرسول (ص) وخلفائه . ولم يعدل عن هذه الشعارات فيما بعد ، وان دمجت مع الشعارات الداعية للوحدة العربية .. ومع ذلك فقد كان ثمة احساس معين بالقلق من هذه الشعارات ، اذ بالرغم من قيادة مصر الفكرية لعرب المشرق والمغرب على حد سواء ، الا أنه يبدو أنه كان هناك أفراط فى استخدام هذه الشعارات دون الانفعال بها .

وقد أثرت هذه التيارات المختلفة على رجــال الســياسة المصريين ، فقد كانت الراسمالية الوطنية التى تقود الكفاح فى مصر محدودة الطموح ، ومحدودة الايمان فى قوة نضــال الشعوب فى الداخل والخارج . وكان تكتل الشعوب العربية فى نظر سعد زغلول زعيم ثورة سنة ١٩١٩ مجرد جمع أصفار . وكان الانجليز ضــد اى تقارب مصرى من الشعب الفلسطينى والعربى .. كما ارتبطت مصالح كبار ملاك الأراضى المصريين بفــكرة المصرية المنعزلة عن العرب خارج الدولة . وقد وقفت حكومة محمد محمود سنة ١٩٢٩ ضد ثورة الشعب الفلسطينى وكتبت جريدتهم « السياسة » تهدد الوطنيين الفلسطينيين بالطرد لاثارتهم الرأى العام خوفاً من غضب بريطانيا ومن أى عامل يثير الشعب . كما صادر اسماعيل صدقى سنة ١٩٣٠ كثيرا من الصحف الوطنية ، واقام حكمه على البطش بالحركة الوطنية وعلى الأرهاب . وأغلق جــريدة « الشــورى » الفلسطينية التى تصدر فى مصر لصاحبها محمد على الطاهر ولكنه ابقى على جريدة « اسرائيل » التى انشأها البرت موصيرى منذ سنة ١٩٢٠ والتى كانت تدافع عن الصهيونية وتنشر الدعوة لها . وكان اسماعيل صدقى من قبل وهو وزير الداخلية سنة ١٩٢٩ قد اعتقل الوطنيين الفلسطينيين الذين هتفوا ضد « بلفور » صاحب الوعد المعروف ، أثناء مروره بالقاهرة لافتتاح الجامعة اليهودية فى فلسطين (١)

وبالرغم من ذلك فقد كان التجاوب والتعاطف بسبب وحدة الظروف وتشابه المشاكل وتجاوب أصداء الــكفاح عبر الحدود قد نمت بشكل ملحوظ . وكانت مصر ملجأ لقادة العرب الهاربين من الاضطهاد . ثم كانت مظاهرات الجماهير بالتأييد ارهاصا للمستقبل، بالعمل الشعبى الواحد ضد العدو الواحد . ثم كان ارسال المعلمين واستقبال الطلبة ممهدا السبيل أمام الوحدة الفكرية والثقافية .

---

(١) الحركة السياسية فى مصر طارق البشرى .

وأخذ الاتجاه العربى يتبلور فى مصر شيئا فشيئا رغم مقاومة السلطة لهذا الاتجاه ارضاء للمستعمر البريطانى ، وقد ظهر ذلك فى اتجاهات الحزب الوطنى وحزب الوفد ومصر الفتاة و « الاخوان المسلمون » الا أنها كانت ترتبط عادة بالفكر الدينى أو بالشعوب الشرقية على وجه العموم . ثم بدأ الاتجاه العربى يظهر فى كتابات بعض الكتاب والمفكرين فى فترة الثلاثينيات أمثال أحمد زكى باشا ومحمود عزمى وعبد القادر المازنى ومحمد على علوبة ومكرم عبيد وغيرهم . وأصبح من الواضح أن القومية العربية أصبحت عقيدة مقبولة فى الوطن العربى ولا سيما عند المثقفين ولكنها لم تكن مطبقة بشكل فيه الكثير من المعانى على الحياة السياسية اليومية (١) .

وكان موقف الحركة الوطنية المصرية من قضية فلسطين والقضية العربية عامة ، يتأثر كثيرا بأسلوب كفاح هذه الحركة ويصعب تصور أن يؤدى أسلوب الكفاح كافة الوسائل « السلمية المشروعة » — أسلوب الحركة الوطنية بقيادة الوفد . الى نتائج عملية أكثر فاعلية مما تحقق . فهو باعتباره (مشروعا) يقبل الحدود والفواصل القائمة . وباعتباره (سلميا) تتحدد مساهماته أساسا فى الدعم السياسى .

ولا شك كان الهدف من قيام الجامعة العربية بايعاز من بريطانيا « وقع بروتوكول الجامعة ٧ أكتوبر سنة ١٩٤٤ » هو أن تكون وعاء يربط بين دول الجامعة بحلف عسكرى واحد يتم تكوينه على مراحل . وأن تكون الجامعة أداة لكبح الشعوب الثورية او المتطرفة فى العالم العربى . وقد ذكرت عن ذلك جريدة الديلى تلجراف البريطانية (ان ظهور هذه الروح قد يؤدى الى تخفيف حدة الروح الوطنية المصرية التى بدأت الظواهر تشير الى وصولها الى درجة خطيرة كما حدث عقب الحرب الماضية) .

---

(١) المصدر السابق .

وجاءت حرب فلسطين عام ١٩٤٨ والعالم العربى ممزق تتحكم فيه الاطماع والشهوات من الداخل والخارج ، وتتحكم فى البلاد العربية انظمة رجعية متحالفة مع المستعمرين الذين كانوا أول من عمل على اقامة اسرائيل « دولة اليهود » .

ودخلت مصر حرب سنة ١٩٤٨ فجأة . ولكن ذلك كان محاولة لصرف نظر الشعب المصرى عن تردى الأوضاع الداخلية خصوصا بعد فشل عرض قضية مصر فى مجلس الأمن فى يوليو ١٩٤٧ والاضطرابات التى كانت تجتاح البلاد وكان أهمها ثورة ضباط البوليس أيام حكم وزارة النقراشي باشا .

كما كان التنافس بين العائلات المالكة فى مصر والسعودية والأردن والعراق أى بين الهاشميين والسعوديين وعائلة محمد على من الأسباب التى أدت الى قرار الملك فاروق بدخول المعركة دون علم الحكومة فى ذلك الوقت .

ولكن لم تسر الرياح كما تشتهى السفن وحلت نكبة فلسطين . وتشرد الشعب الفلسطينى نتيجة مؤامرات الاستعمار والرجعية العربية المتحالفة مع الاستعمار . وعاد الظلام يرخى ظلاله مرة أخرى على العالم العربى وأصبحت البلاد العربية فى حاجة الى تغييرات جذرية فى النظم القائمة بها . فقد ضاق الشعب العربى — الذى اندفع بكل عواطفه واحاسيسه وروحه العربية ليساهم فى المعركة — وبدأت بذور الثورة تكتمل فى نفوس الشعب لانقاذ ما يمكن انقاذه .

قامت ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ فى مصر بقيادة الزعيم الخالد جمال عبد الناصر ولقد شاءت الطبيعة أن تكون مصر بلدا عربيا تشبع بالثقافة والحضارة العربيتين مدة ثلاثة عشر قرنا ، وحين

وجدت نفسها على عتبة مرحلة حاسمة من تطورها التاريخي ، لم تتمكن من أن ترجع القهقرى الى غابر الزمن لتعود الى عبادة آثارها القديمة منقطعة عن ماضيها القريب المفعم بالحياة والوعود .

كان عليها اذن ان تتجه الى المستقبل .. نحو العروبة ، تماما كما على نهر النيل ان يجرى فى اتجاه البحر المتوسط .

راى عبد الناصر ان الحياة فى النصف الثانى للقرن العشرين ومجابهة المشاكل العالمية فى تعقيداتها وتقلباتها وتطوراتها ، دون الاعتراف بأن العروبة حقيقة موجودة ، هو انكار لمغزى التاريخ ورفض لواقع لا يحتمل الجدل ، لواقع له وجهة نظره ومصاعبه وتطوره وأسباب وجوده . فلأول مرة منذ الفى سنة أصبحت مصر حرة تماما يحكمها حاكم من أبنائها . وبدا أن الشعوب العربية التى كان يبدو عليها الانهاك لدرجة دعت بعض الخبراء الى القول بأنها على أبواب القبر ، استيقظت فى رعشة مادة ذراعيها نحوالمستقبل .

راى عبد الناصر ان يقتحم الحواجز والقيود والأساليب البالية التى فرضت على النضال المصرى والعربى ، وان يستخدم أساليب جديدة فى الكفاح تتفق مع تطورات حركات الشعوب المغلوبة على أمرها ، رافضا كافة الوسائل « السلمية المشروعة » التى سار عليها النضال العربى حتى عام ١٩٥٢ .

بدأ عبد الناصر بمواجهة المشكلة الوطنية التى ظلت بلا حل اكثر من سبعين عاما تدور فى متاهات الوعود البريطانية ودهاليز عصبة الأمم المتحدة وقاعات المفاوضات . واستطاع من خلال « عودة الروح » الى شعب مصر وبأساليب الكفاح الثورى والدبلوماسية التى حاك خيوطها مع زملائه بأناة وصبر وشجاعة ، متجاوبا مع بيئته المتحفزة والمعبرة عن أمانى الشعب فى الحرية

والتقدم ، أن يجبر بريطانيا على الجلاء عام ١٩٥٤ ، أى بعد قيام الثورة بسنتين فقط .

بدأ عبد الناصر يتطلع بعد ذلك الى وطنه الكبير .. الوطن العربى ، وكان قد شعر ان المأساة التى يعيشها شعب مصر هى جزء من مأساة أكبر يعيشها الشعب العربى . وان قدر مصر مرتبط بمستقبل الأمة العربية . وان حرية مصر واستقلالها مرتبطان بحرية واستقلال الشعوب والدول العربية . ورأى أن العدو الذى يواجه العرب هو الاستعمار الذى انشب أظافره وبراثنه فى الجسد العربى وراح يمتص دماءه . وان الامبريالية — وهى صورة الاستعمار الحديث — تقسم العالم الى فريقين من الدول ، دول احرزت تقدما اقتصاديا وتكنولوجيا على حساب دول أخرى فرض عليها التخلف فى المضمارين نتيجة لما نزع من ثرواتها وحريتها لتنعم بها طبقات المستغلين من الدول الامبريالية . ووجد أن الأمة العربية ليست وحدها فى هذا النضال ضد الاستعمار فى صورتيه المباشرة ، والجديدة ، وأن هناك امما وشعوبا أخرى قامت وما زالت تقوم بمعارك ضده فى حركات عالمية شاملة ، تتمثل فى يقظة الحركات الوطنية فى آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية ، فضلا عن أن هناك مجموعة أخرى من الدول تبنت الايديولوجية الاشتراكية ، مما جعلها فى صراع لا هوادة فيه مع الامبريالية باعتبارها أعلى مراحل الراسمالية المستغلة ، ومن ثم فهى بطبيعة الموقف حليفة قوية للحركات الوطنية الحديثة بحكم أن العدو فى الحالتين واحد .

وقد استعان الاستعمار من جانبه فى المنطقة العربية ، كما هو فى كل مكان آخر بمجموعة من أبنائها ارتبطت مصالحها بمصالحه واتحدت اهدافهما فى استغلال جماهير الشعب العربى الكادحة واستنزاف ثرواتها وارضها . وعندما نحلل طبيعة تكوين هذه

المجموعة التى يتألف منها اذناب الاستعمار ، نجد انها تتألف من فئتين تتحكمان فى مقاليد الأمور فى معظم البلاد العربيـــة فى ظل الاستعمار وأساطيله :

طبقة من الاقطاعيين ، تلقوا الأرض مصدر قوتهم الاقتصادية والسياسية من يد حكام دخلاء على الوطن العربى مقابل خدمات يؤدونها لهؤلاء الحكام على حساب الشعب ، ويفرضون سيطرة ارهابية على الريف ، ويحتكرون لأنفســــهم خيراته ، والأغلبية الساحقة من الفلاحين تعيش على الكفاف أو قد لا تجده . وكانت هذه الظاهرة بارزة فى مصر ممن مكنوا للاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢

وطبقة المستغلين الرأسماليين الذين كونوا ثرواتهم من خدمة المستعمر يتلقون الفتات الذى يلقيه اليهم ، ويفرضون على الجماهير الكادحة من العمال استغلالا انانيا ويربطون اقتصاد المجتمع كله برأس المال الأجنبى وبنوكه ويضعونه فى خدمته ويمكنون له موارد الثروة فى البلاد .

وبرغم ما بين هاتين الطبقتين من تناقضات أساسية فانهما اتحدتا بحكم وحدة المصلحة فى ظل المستعمر وتحالفتا فى فــرض ديكتاتورية رجعيـــة على مختلف أجزاء الوطن العربى الذى جزاه الاستعمار حتى يستطيع أن يفرض سيطرته الـكاملة عليه .

كان هذا هو العدو الذى يواجهه النضال العربى ويتحدى وعى الجماهير العربيـــة ، ويقف عقبــة كأداء فى سبيل تحقيق تطلعاتها .

وقد واجه عبد الناصر هذا العدو واستطاع ان يقلم أظافر هاتين الطبقتين فى مصر ويحطم نفوذها الاقتصادى والسياسى ، بل

أنه استطاع أن يعزلهما عن شعوبهما فى كثير من البلاد العربية مما مكن لعديد من الثورات العربية التحررية فى العالم العربى .

وقد دخل عبد الناصر معاركه على المستوى القومى ضد محاولة جر مصر والبلاد العربية الى الاحلاف الاستعمارية واستطاع ان يجمد « حلف بغداد » فى بغداد وحدها الى أن تمكن شعب العراق من القضاء على هذا الحلف نهائيا فى ثورته المجيدة عام ١٩٥٨ .

كما عمل على ربط كفاح الشعب العربى بكفاح شعوب العالم المناضلة ضد الاستعمار . وكان مؤتمر باندونج هو المنبر الدولى الذى ارتفع فيه صوت القومية العربية بشكل قوى وفعال ليؤكد حيوية الحركة القومية العربية وانها بدأت مرحلة جديدة من النضال خارج الحدود والقيود التى فرضت عليها من قبل وليؤكد ان حركة الشعوب واحدة ضد عدو واحد هو الاستعمار .

ومن خلال هذا النضال عمل عبد الناصر على القضاء على الازدواجية التى كانت قائمة بين الفكر الاسلامى والفكر العربى ويوحدهما فى حركة سياسية واحدة ، تعتمد أساسا على الجماهير العربية ، التى ارست دعائم الحضارة الاسلامية منذ القرن السابع الميلادى والتى تحملت عبء الكفاح والنضال لنشر رسالة الاسلام فى مشارق الأرض ومغاربها . وبذلك قضى على المحاولات التى كانت تستغل فى الماضى للفصل بين الفكرين وأدت الى فشل كل من الحركات الاسلامية والحركات العربية فى تحقيق أهدافهما .

وجاءت معركة ١٩٥٦ التى كانت نهاية حتمية لعدوان أعد إعدادا خبيثا لا مبرر له مطلقا سوى الرغبة فى استعادة النفوذ المفقود ، والعودة الى العصور الذهبية للاستعمار ، ومحاولة

المستحيل لدفع عجلة التـــاريخ الى الوراء . فالفرنســـيون كانوا يعتقدون ان عبد الناصر هو سبب بلائهم ومصائبهم كلها خاصـــة ما يتعلق منها بحرب الجزائر ، والبريطانيون كانوا يهـــدفون الى المحافظة على بترولهم واستعادة سيطرتهم على الطريق الامبراطورية الشهيرة . وقد ثبت أن معركة الســـويس لم تكن معركة مصر وحدها . ولـــكنها كانت معركة الشعب العربى كله الذى شارك فيهـــا بأحاســـيسه ووجـــدانه . وكانت الشرارة الأولى لتغيرات اجتماعية وسياسية كبيرة فى كثير من البلاد العربية . بل لقـــد اعتبرتها شعوب العالم الثالث فى آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتنية معركتها ، فلأول مرة يناضل بلد صغير ضد قوى استعمارية كبيرة ويستطيع ان يثبت وجوده ويخرج منتصرا . مما كان حافزا لشعوب كثيرة لتحصل على استقلالها السياسى فى الستينات من هذا القرن اى فى أعقاب معركة السويس ، كما عبر عن ذلك احد الساسة الافريقيين الذين حضروا اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة ابان حرب السويس .

وتعتبر الحركة القوميـــة العربيـــة الداعية إلى الوحدة التى يجسدها فكر عبد الناصر ، والذى يطلق عليها اسم « الناصرية » ثورة على ثلاثة أوضاع سياسية مترابطة .

فالهدف الأول الأكثر وضوحا للحركة « الناصرية » هو انها احتجـــاج من الشعوب العربية على تجزئتهـــا إلى عدد من الدول المستقلة . فقد استطاع فكر عبد الناصر أن يبرز حقيقة ثابتة من حقائق التطور البشرى ، وهى ضرورة التكتل والتجمـــع فى سبيل الاستزادة من الكرامة والأمان . ويعبر الميثاق عن هذا الاتجاه تعبيرا جميلا بقوله « أصبح طريق الوحدة هو الدعوة الجماهيرية لعودة الأمر الطبيعى لأمة واحدة فرقها أعداؤها ضد ارادتها وضد مصلحتها، والعمل السلمى من أجل تقريب هذه الوحدة ثم الاجماع على قبولها

تتويجا للدعوة والعمل معا » . كما أن تاريخ هذه المنطقة يثبت بما لا يدع مجالا للشك أهمية الوحدة والترابط بين شعوب هذه المنطقة ليس لأسباب سياسية واقتصادية وثقافية فقط بل من الناحية الاستراتيجية ايضا ، فالغزوات التى كانت تستهدف هذه المنطقة كانت دائما تتحطم نتيجة الجهد المشترك بين الشعوب العربية . وقد وعى حكام مصر هذه الحقيقة . فحينما غزا التتار المشرق العربى واجتاحوا بغداد ، خرج لهم المصريون وهزموهم فى معركة « عين جالوت » . وكذلك خرج صلاح الدين الأيوبى ليهزم الصليبيين فى « حطين » . وحينما بدأ العثمانيون غزو مصر خرج المصريون لملاقاتهم فى « مرج دابق » . وبهزيمة المصريين فى هذه المعركة فتحت أبواب مصر للغزو العثمانى . ويقول « ليونارد باندر » فى كتابه الثورة العقائدية فى الشرق الأوسط : « ولا ريب أن فى وسع الذين يتطلعون إلى مزيد من المنطق فى الأسباب التى أدت إلى نجاح الناصرية على صعيد الحركة الوجودية العربية ، أن يطبقوا تحليل الأستاذ « كارل دويتش » لتكوين المجتمعات القومية فى أوربا ، إذ أن هذا التحليل قد ينطبق على المنطقة العربية أكثر من انطباقه على المنطقة التى تولى الأستاذ دراستها . وتؤلف مصر على ضوء هذا التحليل نواة هذه المنطقة لا بفضل موقعها الجغرافى أو ثروتها الفائضة فحسب ، بل وبفضل سعة مساحتها ، ووفرة سكانها ، واستقرارها ، وأمنها النسبى وقيادتها الفكرية للوطن العربى أيضا » .

وقد أوضح عبد الناصر فى كثير من خطبه وأحاديثه ورسائله ان الخلافات بين الدول العربية ليست مصطنعة أو سطحية ، وإنما هى انعكاس للتناقضات الواقعية المتجسدة فى الوضع العربى . لكن التضامن العربى ضرورى لمواجهة الأخطار الخطيرة والأعداء الأقوياء . وان العرب فى حاجة إلى تضامن صحيح لا إلى تضامن صورى . يضاف الى هذا أن التضامن يجب الا يحد من الجهد العربى

او يعيق من حرية الطلائع العربية . وقال عبد الناصر أن مصر أيدت كل بلد عربى فى نضاله من أجل حريته ، وان قضية فلسطين كانت الحافز الذى دعاها إلى مقاومة حلف بغداد ، والدافع الذى حفزها على شراء الأسلحة من الكتلة السوفيتية لتحطيم احتكار السلاح ، كما اوضح ان مصر احتملت العبء الرئيسى فى دعم نضال الجزائر من اجل الحرية ، كما ساعدت تونس والمغرب والسودان وعمان واليمن الجنوبية ولبنان حتى الأردن فى الحصول على استقلالها . وقد قامت مصر بذلك أداء منها لواجب عليها ، إذ انها تعتقد أن شعبها بطاقاته المادية والمعنوية الضخمة ، قد وضعه القدر فى مركز طليعة النضال العربى وقاعدته المنيعة وليست السيطرة هى دور القاعدة بل الخدمة الصادقة الأمينة . وقال عبد الناصر ان إيمان مصر بالقومية العربية إيمان صادق نابع من التيار القومى المندفع لتحقيق الوحدة العربية الشاملة مضيفا أن ما يهمها هو إرادة الشعب العربى اكثر من الشكل الدستورى . وقد أكد عبد الناصر فى مواضع ومناسبات كثيرة ان سياسة مصر هى انعكاس لوجودها ؛ وهو الوجود الذى لا تستطيع أن تتنكر له . لكن هذا لا يعنى أنها تريد أن تفرض سياستها على الدول العربية الأخرى . إذ أنها تعرف أن كل دولة عربية أقدر من غيرها على مواجهة ظروفها الخاصة . ولها الحق فى ان تكون لها الكلمة الأخيرة والقول الفصل فى هذه الظروف .

أما الهدف الثانى للحركة « الناصرية » فهو احتجاج على النظم الاقتصادية والاجتماعية الراهنة فى جميع البلاد العربية وعلى تركيب السلطان السياسى فى بعضها . ولا يمكن فهم هذا الهدف إلا على صعيد التبدل الاجتماعى الذى حدث فى مصر وفى كثير من البلاد العربية .. وقد كان من المعروف ان البنيان التقليدى للمجتمع العربى ، تعرض للضعف نتيجة للضغوط الأوربية الغربية من اقتصادية وسياسية وعسكرية . ومع ذلك فان عناصر جديدة خلقت

فى هــذا المجتمع أخذت تتحدى التوزيع الراهن للقيم الاجتمــاعية والاقتصادية والسياســية . وبالرغم من اعتــدال هــذه الحركة الاجتماعية فى بدايتها ، فان نزعتها المتطرفة أخذت فى الازدياد مع اتساع صفوف هذه العناصر الجديدة . وقد أبرز الميثاق الوطنى كثيرا من معالم هذه التحولات الاجتماعية كما أظهرت تطبيقاتها فى المجال العملى فى مصر انعكاسات لها آثارها فى كثير من البــلاد العربية المتحررة ، بل وفى كثير من بلاد العالم النامى . إلا أن هذا الموضوع باتساعه ودقته يحتاج إلى عدة بحوث لبيــان دور فكر عبد الناصر فى التحولات الاجتماعية والاقتصادية التى تجتاح الوطن العربى . والتى ادت إلى ثورة اقتصادية قومية لزيادة الانتاج وتحقيق عدالة التوزيع . وخلق الفرص المتكافئة أمام الجميع وإذابة الفوارق بين الطبقات والتخطيط لمضاعفة الدخل القومى فى عشر سنوات . وقد كان أسلوب ذلك هو تحديد ملكية الأرض وتأميم الاحتكارات الأجنبية ، وكذلك تأميم المصارف وشركات التأمين كيلا تكون وسيلة للتحكم فى اقتصاديات البلاد ، بالاضافة الى وضع سياسة ضرائبية جديدة وانشاء الجمعيات التعاونية .. الخ بما يضع البلاد فى طريق البناء الاشتراكى والذى يعتبر فيه الاشتراكية حلا حتميــا لمواجهة مشكلة التخلف ، وهى سبيل الوصول إلى تحقيق العدل الاجتماعى ؛ كما أنها كانت توسعا عاطفيا فى الفكرة القومية لتشمل المشاكل الناشئة عن ارتخاء الصلات الاجتماعية التقليدية السابقة .

وكان الهدف الثالث للحركة « الناصرية » هو الاحتجاج على استقطاب القوى الدولية فى كتلتين متصارعتين . وهذا هو الذى أملى على عبد الناصر اتخاذ سياسة عدم الانحياز لأى من الكتلتين العالميتين حفاظا على حرية واستقلال الشعوب العربية بعيدا عن كافة المحاولات لوضعها داخل مناطق النفوذ . وقد ناضل عبد الناصر لتحقيق هذه السياسة ، وكان احد ثلاثة قامت عليهم هم عبد الناصر

ونهرو وتيتو . وقد ارتبطت سياسة عدم الانحياز بحركة القومية العربية التى تهدف إلى تحقيق الوحدة ؛ ليس بهدف المناورة أو اللعب على الكتلتين الكبيرتين ولكنه تأكيد لحركة التحرر ، التى ارتبطت بها حركة القومية العربية . فهى مبدأ أكثر منها سياسة طالما أن البلاد العربية لا تزال فى مراحلها الأولى من التنمية الاجتماعية والاقتصادية وحاجتها إلى عشرات السنين لكى تطوى قرون التخلف التى فرضت عليها من قبل الاستعمار . وهى ليست وليدة حوافز انتهازية أملتها مصالح مصر ومخططاتها — كما يحاول البعض تصوير ذلك — ولكنها سياسة أصيلة تعبر عن الايمان الصادق المطلق بالسلام العالمى عن طريق التعايش السلمى ووقف تقسيم العالم إلى كتل متصارعة على النفوذ والسلطان . ومن العسير أن ينظر إليها كشىء مختلف عن كونها عنصرا كامنا فى القومية العربية . كما أنها السياسة الخارجية الوحيدة التى تضمن تحقيق الدوافع الأساسية للسلوك الانسانى . فهى توازن بين الأمة والفرد وتؤكد أن كلا منهما يندفع ويتأثر بمجموعة من الحاجات التى تنظم بصورة حركية فى شكل هرمى . وقد اوضحت هذه الحاجات فى انها الحفاظ على النفس والمتطلبات الاقتصادية والأمن والسلام ، والحرية والاستقلال واحترام الذات .

هذه لمحات عن فكر عبد الناصر القوى الذى يحتاج إلى مجلدات لابرازه على حقيقته الحية النضرة . لقد كافح عبد الناصر من أجل الأمة العربية ومستقبلها . وكانت روحه لا تعرف اليأس أو الهزيمة ، فقد كرس حياته من أجل القضية الثورية لجماهير شعبنا العربى فى كل مكان . وكانت حياته العظيمة زاخرة بالصعاب والتضحيات . ولكنها كانت حياة نبيلة وغنية ونقية ، استطاعت أن تطبع بصماتها على حياة الملايين من البشر . وكانت ارادته الثورية انعكاسا لارادة الجماهير وتصميمها لتحقيق النصر فى كافة الميادين . لقد ناضل عبد الناصر من أجل شعبه ومن أجل الجماهير المضطهدة فى كل مكان . فلم يكن مناضلا وطنيا فقط ، بل كان من أبرز مكافحى حركات التحرر

الوطنى فى القرن العشرين . لقد عمل على تحقيق التضامن العربى والدولى من أجل القضية العربية ، وقضية الثورة الفلسطينية ، ومن أجل تعبئة الجهود لدعم ثورة الشعوب ضد الاستعمار .

لقد قال عبد الناصر فى المؤتمر القومى العام ١٩٧٠/٧/٢٦ :

« نحن نريد السلام ولكن السلام بعيد . ونحن لا نريد الحرب ولكن الحرب من حولنا . وسوف نخوض المخاطر مهما كانت دفاعا عن الحق والعدل ، حق وعدل لا سبيل لتحقيقهما غير طرد قوى العدوان من كل شبر من الأرض العربية المحتلة سنة ١٩٦٧ .. من القدس .. من الجولان .. من الضفة الغربية .. من غزة .. من سيناء .. وحق وعدل لا سبيل لتحقيقهما غير استعادة الشعب الفلسطينى لحقوقه الشرعية وخروجه من خيام اللاجئين ليدخل مدنه وقراه ومزارعه وبيوته . ويعود مرة أخرى إلى قلب الحياة بعد أن ارغمته الظروف أن يبقى أكثر من عشرين سنة على هامش الحياة ..

هذه قضية شعبنا وقضية أمتنا العربية » .

(٧)

« من الضرورى تطوير سياسة عدم الانحياز لتقوم العلاقات بين دولها ٠٠ ليس فقط على أسس سياسية بل على أسس اقتصادية واجتماعية»

انشـأ عبد النـاصر وشـارك فى قيادة مجموعة عدم الانحياز . هل يوجد انحسار لهذه الحركة ؟ وما دورها فى العالم بعد التغيرات الدولية الأخيرة والتى لم يشهدها عبد الناصر ؟

انقسم العالم بعد الحرب العالمية الثانية إلى كتلتين جبارتين تواجه كل منهما الأخرى بنفوذها وأفكارها وقواها البشرية والعلمية والاقتصادية وجيوشها وأسلحتها التقليدية والنووية . وفى هـذه المرحلة ظهرت الدول الآسيوية والافريقية الحديثة الاستقلال . . وكان عليها أن تجد أسلوبا سليما للتعامل فى الشئون الدولية يحفظ لهـا استقلالها وسيادتها وحريتها فى التصرف . وكان هذا الأسلوب هو عدم الانحياز الذى صاغه ودعمه عبد الناصر ونهرو وتيتو . ورفض مؤسسو سياسة عدم الانحياز أن يكونوا كتلة ثالثة .. وقد أشار جمال عبد الناصر إلى هـذه الحقيقة الأساسية بقوله « إن الدول الملتزمة بسياسة عدم الانحياز لا ينبغى أن تصنع بنشاطها كتلة دولية ثالثة .. اننا نعيش فى عالم يعانى من الصراع بين كتلتين ولا نتصور أن تدخل الحلبة كتلة ثالثة تزيد من حدة هذا الصراع بدلا من أن تخفف من وطأته » .

وكان مؤتمر بلغراد الذى عقد فى سبتمبر سنة ١٩٦١ هو شهادة الميلاد الرسمية لتيار عدم الانحياز . ولكن عدم الانحياز يرجـع فى الواقع الى مؤتمر باندونج للتضامن الافريقى الآسيوى الذى عقد فى ابريل سنة ١٩٥٥ ونشأت فيه فكرة الحياد الايجابى وهى نفس الفكرة التى تطورت فيما بعد إلى مفهوم عدم الانحياز الذى هو عبارة عن سياسة إيجابية تطبقها الدول النامية المستقلة باختيارها ومسئوليتها ولا تفرض عليها من الخارج . كما أنه يدعو إلى انتهـاج سياسة

مستقلة ازاء المشاكل الدولية بوحى من المصلحة الوطنية وصــــالح السلام العالمى دون التزام بارتباط مذهبى سابق .

وكان تيار عدم الانحياز من اهم التطورات الدولية التى ظهرت فى عصر الانقسام الذرى . وخلال الخمسة عشر سنة المــــاضية قامت دول عدم الانحياز بأكبر الأدوار واهمها داخل الأمم المتحدة وخارجها . ولم يقتصر هذا الاتجاه على الدول الافريقية والآسيوية . وإنمـــا تعداها إلى القارات الأخرى فنشأت اتجاهات قوية لعدم الانحياز فى أمريكا اللاتينية وفى أوربا نفسها وكان ذلك كله انتصار لفكرة عدم الانحياز على المستوى العالمى .

ويمكن اجمال بعض النتائج الأساسية لسياسة عدم الانحياز فى الآتى :

١ — ساهمت سياسة عدم الانحياز فى المحافظة على استقلال الدول النامية الحديثة الاستقلال . فقبل ظهور هذه السياسة كانت الدول التى تحصــــل على استقلالها إما أن تقع تحت النفوذ الاستعمارى مرة اخرى بشكل أو بآخر وإما ان تنضم إلى الكتلة الشرقية . لذلك أصبحت سياسة عدم الانحياز هى الطريق الذى تتخذه حركات التحرر الوطنى وأمكن بواسطتها صيانة استقلال دول كثيرة .

٢ — قام تيار عدم الانحياز بدور فعال فى الحد بل تصفية كثير من الأحلاف العسكرية التى أقامها الغرب لضرب نطاق من الحصار حول المعسكر الاشتراكى وللقضاء على حركات التحرر الوطنى ذات البعد الاجتماعى . وكان انتصار سياسة عدم الانحياز ضربة عنيفة ضد هذه السياسات مما جعل الأحلاف العسكرية تفقد الكثير من هيبتها وأهميتها .

٣ — أمكن لتيار عدم الانحياز أن يوجد علاقة بين العالم الثالث النامى والكتلة الشرقية ، وإن كان ذلك لا يعنى بالضرورة الانضواء تحت لواء المعسكر الشرقى . وقد أثبت هذا التيار أنه ليس رصيدا للامبريالية العالمية ، بل على العكس من ذلك نصير للثورة التقدمية العالمية . لذلك أقدمت الدول الاشتراكية على تأييد هذا التيار وتقديم كافة المساعدات له .

٤ — وقف عدم الانحياز إلى جانب السلام العالمى فى كل القضايا والمشاكل الجزئية التى تثور فى الأمم المتحدة وخارجها مثل نزع السلاح والحد من استخدام الأسلحة الذرية وتصفية الاستعمار ومحاربة التفرقة العنصرية والتخلف الاقتصادى والمطالبة بالتقليل من الهوة بين الدول المتقدمة والنامية ومحاولة التقريب بين وجهات نظر الشرق والغرب .

هذه هى بعض النتائج الايجابية التى أمكن لسياسة عدم الانحياز تحقيقها . ولو أنها لا تسير بنفس الحماس والقوة حاليا كما كانت قبل وفاة نهرو وعبد الناصر . ومحاولات الدول الكبرى استقطاب كثير من الدول الصغرى إلى جانبها فى الصراع العالمى الذى بدأت تتعدد فيه مراكز القوى السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وبالرغم مما يردده البعض عن سياسة الوفاق بين الدول الكبرى واحتمال تأثر عدم الانحياز بهذه السياسة فاننا نعتقد أن ذلك غير صحيح فلا تزال التناقضات السياسية والأيديولوجية والقومية قائمة بين الكتل الدولية الكبرى مما يمكن مجموعة عدم الانحياز من الاصرار على السير فى سياستها التى قامت عليها . إلا أنه من الضرورى تطوير هذه السياسة لتقوم العلاقات بين دول عدم الانحياز ليس فقط على أساس سياسى بل على أسس اقتصادية واجتماعية

حيث يوجد تشابه كبير بين هذه الدول فى المشاكل الاجتماعية والاقتصادية التى تواجهها . وبهذا يمكن الحد من سياسة الاستقطاب التي تمارسها الدول الكبرى .

لقد كانت سياسة عدم الانحياز إحدى الانجازات الكبرى للفكر الناصرى على الصعيد الدولى وأمكنها ان تؤدى دورا إيجابيا فى السياسة العالمية .

(٨)

« الأحزاب والتنظيمات السياسية مجـــرد شـــكل من أشـــكال الديموقراطية وليست جوهرها٠٠ »

الحرية والديموقراطية

يغيب عن بعض الذين يتناولون قضية الحرية والديموقراطية ، عدة حقائق ترتبط بالظروف والتطورات التى تواجهها هذه القضية ، لا يعطونها حقها من الدراسة والبحث ، بل ان البعض يناقشون القضية من منطلق أكاديمى بحت ، ويستندون فى ذلك الى آراء مفكرى القرنين الثامن والتاسع عشر ، دون وضع اعتبار لحقيقة التحولات الاجتماعية التى حدثت فى العالم منذ أوائل القرن العشرين ، والذى بدأت تسير فيه الحرية الاجتماعية جنبا الى جنب مع الحرية السياسية وانعكاس ذلك على النظم الراسمالية وعلى حركات التحرر الوطنى فى العالم خصوصا بعد الحرب العالمية الثانية ، بحيث اعتبر العصر الذى نعيش فيه هو عصر انتشار الاشتراكية بمفهومها السياسى والاجتماعى . بل أنه لما يسترعى النظر ، أن الذى يسيطر على الحكم فى دول غرب اوروبا حاليا ، هى الاحزاب الديموقراطية الاشتراكية التى هى فى الواقع محاولة من النظم الراسمالية لاستقطاب المد الاشتراكى الذى يجتاح عالم اليوم ، مع تراجع ملحوظ بالنسبة لاحزاب المحافظين والاحرار ، التى هى من ناحية الواقع التاريخى كانت ثورة فكرية قامت قبل كل شىء لصالح الملاك فى ميدان جديد له أهمية جديدة هو الميدان الصناعى ، وحينما يتكلمون عن « حقوق الانسان » انما يقصدون تلك الطبقة المحدودة من الناس الذين يملكون وسائل الانتاج فى المجتمع .

بذلك أصبحت الاشتراكية هى الاطار المميز للنظم السياسية سواء فى شرق أوربا أو غربها ، وأن اختلفت المدارس الفكرية التى تنتمى اليها هذه النظم .

ان ذلك يوضح لنا حقيقة هامة ، هى أن قضية الحرية ليست قضية ثابتة أو جامدة . ولا يمكن معالجتها فقط من وجهة النظر

الفلسفية ، بل أنها حقيقة لا سبيل الى فهمها الا فى نطاق الوجود الانسانى بأكمله بكافة جوانبه المادية والروحية . لذلك فهى ترتبط بمدى ما يحققه الانسان من تطور فى حياته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية . ولا يمكنها ان تظل مرتبطة بمفاهيم قديمة أو موروثة ، أو تكون مجرد قضية فلسفية بعيدة عن حقائق الحياة . والا حكم الانسان على نفسه بالفشل والجمود .

وقد عبر كثير من المفكرين عن آرائهم ونظرتهم الجديدة الى حرية الانسان أمثال سان سمون وفورييه وروبرت اون وهارولد لاسكى وغيرهم . والتقى فكرهم فى حقيقة هامة وهى أن العبرة ليست فقط بالحريات السياسية دون أن يكون لها مضمون اجتماعى ، وألا كانت مجرد شعارات جوفاء تستخدم لتخدير الشعوب .

ان تحقيق حرية الانسان تقتضى ازالة كافة القيود التى تعوق حريته ، سواء كانت هذه القيود سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو ثقافية . وان من أهم الشروط لتحقيق الحرية هو تحرر الانسان من الفاقة والحاجة اى تحريره من الاستغلال والظلم الاجتماعى . والتحرر من الخوف بأن يشعر الانسان بالأمان فى المجتمع الذى يعيش فيه ، بل عليه أيضا أن يتحرر من الجهل فاذا حرم الانسان من المعرفة فسيكون عبدا لحفنة من المحظوظين الذين أتيحت لهم فرصة المعرفة ، فالمعرفة تفتح آفاقا جديدة أمام الانسان ، وتسمح بتحديد الطرق والوسائل لاكتساب السيطرة على القوانين الموضوعية ، وتقود مباشرة الى قدر اكبر من الحرية . اننا نعيش فى عالم ملىء بالاخطار ، يتعين علينا أن نجازف بشق طريقنا خلاله . وتحت مثل هذه الظروف لا يمكن ان يكون للحرية اية قيمة الا إذا كان العقل مدربا على استخدام حريته . فمنذ أن تمكن العلم من

فرض سيطرته على الطبيعة ، تغيرت بذلك موارد القوة والسلطة، أصبح حق الرجل الحديث فى التعليم شرطا أساسيا لحريته . ولكن الحرمان من المعرفة ليس انكارا للحرية وانما هو انكار للمقدرة على استخدام الحرية للوصول الى أهداف عظيمة . والرجل الجاهل قد يكون حرا فى جهله ولكنه لا يستطيع فى عالمنا أن يستخدم حريته فى تحقيق أى تأمين لسعادته .

وفى ذلك يقول « جيفرسون » : « لا يتأتى للشعب أن يكون جاهلا وحرا وفى حالة تحضر أيضا ... ان ذلك ضرب من المحال ». ويقول « فرانكلين روزفلت » : أننا لا نستطيع ان نفترض فى غير مبالاة — ان أمة ما تتصف بالقوة والعظمة لمجرد انها تتمتع بحكومة ديموقراطية . فقد علمتنا الأيام ان الدول الديموقراطية التى تمزقها الخلافات الداخلية وتضعفها الريبة المتبادلة الناشئة عن الظلم الاجتماعى . لا يمكن ان ترقى الى مصاف الديكتاتوريات التى تتمكن — مع ما تتصف به من قوة — من القضاء على ما يعترضها من انقاسامات داخلية فلكى تظل الديموقراطية متمتعة بالحياة ينبغى أن تصبح قوة فعالة فى حياة الناس اليومية ، وينبغى ان تجعل الرجال والنساء الذين تطمع فى ولائهم لها ، يشعرون انها معنية حقا بأمن كل فرد وطمانينته ، وأنها على قدر من التسامح بحيث تكفل التفاف جميع المواطنين حول وحدة قومية لا غناء عنها ، وأنها ذات طبيعة محاربة تؤهلها للمحافظة على الحرية فى وجه الاضطهاد الاجتماعى الذى يهددها فى الداخل ، والعدوان العسكرى الذى يهددها فى الخارج » .

من هذا يتضح لنا أن مفهوم الحرية قد تطور عبر القرون والأجيال . فالحرية لم تصبح قاصرة على السادة دون العبيد كما نادى بذلك فلاسفة اليونان الأقدمين . كما أنها لم تصبح قاصرة

على الحرية السياسية كما نادى بذلك فلاسفة عصر الثورة الفرنسية ، بل اصبحت فى عصرنا الحاضر تعنى الحرية السياسية والحرية الاجتماعية وأصبح كل منهما يكمل الآخر .

الحرية والديموقراطية :

ان الحرية تتصل بحياة الفرد وتطلعاته أكثر مما هى متصلة بحياة المجتمع . ولكننا إذا اعتبرنا ان المجتمع هو مجموع الأفراد الذين يكونونه ، فهى أيضا مرتبطة بحياة هذا المجتمع . والفرد بطبيعته ضعيف أمام المجتمع . الا أن ارادته الحقيقية متماثلة مع أهداف التراث العام للمجتمع الذى ينتمى اليه . كما انه لا يستطيع ان يصنع بنفسه هدفه فى الحياة وانما مجموعة الأهداف فى المجتمع الذى يجد نفسه فيه ، هى التى تصنع هذا الهدف . وهذا لا يتأتى الا بفضل الحياة الاجتماعية التى تعطى للحياة معنى ومغزى واتجاها .

ان حرية كل فرد مرتبطة بحرية المجتمع الذى يعيش فيه ، ويجب ان تخضع لحرية ذلك المجموع الأكبر الذى يستمد منه الفرد كيانه بأكمله . ذلك ان حقوق كل منا تعتمد على السور الوقائى للتنظيم الاجتماعى . فنحن لسنا أحرارا لأنفسنا ، بل المجتمع الذى يعطينا كياننا . فقد مضى الوقت الذى كانت فيه حرية الفرد فوق حرية المجتمع . فاذا ما أطلق المرء العنان لرغباته — وهو ما يعتبر أهم علامات الحرية — فان ذلك يمكن ان يقوده الى النقيض تماما . وتصبح الحرية حرمانا من الحرية . يقول « سبينوزا » : « اننى أعتبر العجز الانسانى عن التحكم فى العواطف أو الاعتدال فيها عبودية ، فحين يكون الانسان فريسة لعواطفه ، فانه لا يكون سيد نفسه ، وانما هو يرتد تحت رحمة المصادفة ، حتى أنه كثيرا ما يجبر — وهو يرى ما هو أفضل له — على ان يتبع ما هو أسوأ » .

فاذا كانت الحرية بمفهومها المتطور هى الهدف الذى نسعى اليه ، فان الديموقراطية هى الاطار الذى يمكن عن طريقه أن يمارس الفرد والمجتمع حريته الكاملة من خلاله . وكما أصبح للحرية مفهومها السياسى والاجتماعى ، اصبح أيضا للديموقراطية مفهومها السياسى والاجتماعى . إلا أنها لا تؤخذ بمفهومها السياسى والاجتماعى فقط ، فهى أعمق من ذلك بكثير . فهى فلسفة متصلة بعقل الفرد وكيانه وحياة المجتمع الذى يعيش فيه . وهى ليست الحرية كما يتصورها البعض ، ولكن — كما يقول لاسكى — الأسلوب الذى يؤدى الى قيام الحرية ويضمن بقاؤها ، وإطار لحكومة يتوافر فيها الآتى :

١ — اعطاء الجماهير الفرصة للتعبير عن آرائها بحرية تامة ، والا يكون ذلك وقفا على طبقة أو فئة بذاتها .

٢ — ان القوانين التى تصدرها هذه الحكومة سوف تربط مصالح اكبر الجماهير الشعبية بدرجة متساوية والا يكون هدف هذه القوانين خدمة طبقات أو شرائح معينة فى المجتمع .

فالديموقراطية ليست مجرد شكل ، بل أهم من ذلك محتواها ومضمونها . يقول البعض أن الديموقراطية معناها الاحزاب، وهذا غير صحيح فالاحزاب مجرد شكل من أشكال الديموقراطية وليست هى جوهرها ، بل أنها فى حقيقتها الواجهة السياسية لطبقة اجتماعية أو مصالح اقتصادية معينة .

قد تكون الاحزاب وسيلة من وسائل الديموقراطية ، ولكن إذا لم يكن هناك توازن بين القوى الاقتصادية والقوى السياسية فى المجتمع ، بمعنى ان يفوق التقدم الاقتصادى التقدم السياسى ،

فان الحرية تصبح منعدمة حيث يسيطر رأس المال على كافة أوجه النشاط فى المجتمع، بما لا يحقق الحرية أو الحياة الديموقراطية الحقة للمواطنين . ولدينا أمثلة كثيرة عن دول متقدمة تنطبق عليها هذه الحالة رغما عن أن نسبة الأمية فيها لا تتجاوز ١ ٪ أو ٢ ٪ .

ويقول هارولد لاسكى « ليس معنى الحرية أو الحياة الديموقراطية هو قيام الاحزاب وتعددها . فقيام الدولة ذات الحزبين بل حتى المتعددة الاحزاب ، ليست بالضرورة ضمان للحرية ، فهذا يعتمد أولا على نوع وشكل توازى القوى الاقتصادية فى المجتمع وثانيا على علاقاتها ببنائه السياسى » .

كما يؤكد هارولد لاسكى على أن قيام نظام الاحزاب السياسية فى مجتمع بناؤه الاجتماعى متخلف ، فان ذلك يؤدى الى تقوية الاوتوقراطية وتصبح الحرية والديموقراطية وقفا على الطبقات التى تملك القوى الاقتصادية فيه .

هذا وتدور فى كثير من الأوساط السياسية فى أوربا الغربية مناقشات حول تطوير النظام الديموقراطى البرلمانى الذى لم يعد يلاحق التطور العلمى والتكنولوجى وأصبح متخلفا عن متطلبات العصر ؛ حيث تميل الحكومات ازاء هذا التطور الى تركيز السلطة فى أيديها بل فى عدد من الخبراء وهذه هى المحنة التى تواجهها الديموقراطية الغربية فى وقتنا الراهن وتحاول ايجاد الصيغة الديمقراطية التى تتلاءم مع عصر العلم والتكنولوجيا . كما أننا نجد صور أخرى لتطور الديموقراطية فى يوغوسلافيا حيث تقوم بعض المجالس النوعية المتخصصة بجانب المجلس الاتحادى الذى يعمل على المستوى السياسى وذلك لمواجهة التعقيدات التى يفرضها عصرنا الحاضر .

ان ذلك يدلنا على أنه سواء فى غرب أوربا أو شرقها تجرى المحاولات ، لتطوير الديموقراطية بمضمونها وشكلها لتساير حركة التطور التى تسير فيها المجتمعات الانسانية .

الواقع المصرى :

ان الواقع المصرى الذى لم يحاول كثير من الباحثين التعرف على حقيقته ، بل يتغاضـــون عنه عنـــد بحث قضـــية الحـــرية والديموقراطية ، فإنه مجتمع نام تبلغ نسبة الأمية فيه حوالى ٧٠ ٪ بمعنى ان ٧٠ ٪ من أفراد المجتمع لا يستطيعون ممارسة الحرية الا نظريا بسبب الحاجة الى المعرفة . كمـــا ان التخلف المـــادى نسبيا والتفاوت الطبقى الذى أخذ يتزايد فى الســـنين الأخيرة ، أصبح يشكل من ناحية أخـــرى عائقـــا جديدا ضـــد الممارســـة الديموقراطية من قبل الأغلبية التى لم تؤمن بعـــد من النـــاحية الاقتصادية أو تحصل على حقوقها الاقتصادية كاملة . وليس لديها وقت الفراغ لـــكى تستطيع أن تفكر سياسيا . حيث أصبح جهدها مركز للحصول على لقمة العيش .

ومعنى هذا أننا نواجه تخلفا ماديا وثقافيا ينعكس بدوره على قضية الحرية والديموقراطية . ليس معنى هذا انكار الحـــرية ولـــكنه يضع العقبات فى سبيل ممارسة الحرية من قبل الأغلبية . كما أن مصر بموقعها الاستراتيجى المتميز . وكجزء من العـــالم الثالث أو العالم الرابع الذى تجرى على أرضـــيته مختلف انواع الصراع بين الدول الكبرى المتقـــدمة ، يجعلهـــا فى مهب تيارات سياسية واجتماعية مختلفة ، تغرى البعض على اتباع أى منها ، باعتبار أنها أظهرت نجاحا فى بلادها ، ومن الممكن ان تؤدى الى نفس النتائج إذا ما طبقت فى مصر . دون وضع أدنى اعتبار لطبيعة

الواقع المصرى وخصـــائصه الايجابية والسلبية المختلفـــة ومدى التطور الذى وصل اليه .

هذا علاوة على ما يجب ان تمثله مصر فى الوطن العربى من قوة طليعية تقدمية ، تعبر حقيقة عن ضمير الأمة العربية . وفى الوقت الذى ما زلنا نخوض فيـــه معركة ضارية ضد الصهيونية والامبريالية العالمية .

ان هذا الواقع بعوامله المؤثرة المحلية والعربية والدوليـــة تجعلنا نأخذ سبيل الحذر فى اى طريق نسلكه لبنـــاء مســـتقبلنا السياسى والاجتماعى . وكان من الضرورى ونحن فى مرحلة ثورية ان يقوم تحالف قوى الشعب العامل ليكون بديلا ثوريا لتحـــالف الاقطاع ورأس المـــال المستغل . وقد استطاعت قـــوى العمال والفلاحين والمثقفين من خلال هذا التحالف أن تشق طريقها الى قمة العمل السياسى والاجتماعى ، بعد أن كانت محرومة منه فى الماضى . واستطاعت الراسمالية الوطنية المنتجة أن تبلور وجودها فى مواجهة الرأسمالية البيروقراطية المســـتغلة المتحـــالفة مع رأس المـــال الأجنبى . وأمكن الى حد ما تقليل عاملى عدم المعرفة وعدم الاكتفاء الاقتصادى على قضية الحرية والديموقراطية . كما أمكن بدرجة معينة تحقيق الديموقراطية الاشتراكية على أساس كمى وكيفى . كمى من ناحية شمولها وممارستها على كافة المستويات وكيفى من حيث ارتباط الديموقراطية السياسية بالديموقراطية الاقتصـــادية اللتان هما جناحا الحرية .

الا انه من أهم العقبات التى وقفت فى هذا الطريق : هو تفشى البيروقراطية داخل التنظيم السياسى الذى يمثل فلسفة التحالف بحيث أصبح العمل السياسى وظيفة أكثر منه رسالة . وقد نجحت البيروقراطية فى تخدير الجماهير وتقسيمها واضعافها وخداعبـــا

بغية تنفيذ سلطتها المطلقة عليها . ولكنها فشلت فى اعطائها تربية ثورية . فبعد ان اخمدت حدة اندفاع الجماهير الشعبية ، أصبح من العسير عليها ان تثير فيها جراة ثورية . وهى تفضل صداقة ومساعدة ، الطبقات الرجعية أو الذين يناهضون الفكر الثورى أو البيروقراطيين من النقابيين بما يتناقض مع فلسفة التحالف ، التى تهدف الى تعبئة الجماهير سياسيا واجتماعيا ونضاليا . والعمل على إذابة الفوارق بين الطبقات وحل التناقضات غير العدائية فيها . بل أنه بعد أن زادت حدة هذه التناقضات نتيجة السياسة الاقتصادية المتبعة ، مما أدى الى اختلال التوازن بين قوى التحالف تطرح شعارات « السلام الاجتماعى » و « السيولة الطبقية » بما قد يوحى ان الهدف هو الابقاء على هذه التناقضات بدون حل . فليس من المعقول ان يكون هناك تحالف بين قاهر ومقهور أو بين مستغل ومستغل . واصبحت صيغة التحالف تستخدم لتثبيت اقدام الثورة المضادة وضرب الانجازات التى تحققت من خلال نضال الجماهير ، ومن خلال العمل الثورى العظيم لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . ان التناقض الصارخ بين الشعارات الاشتراكية المطروحة والحقيقة التى نعيش فيها وتحس بها الجماهير يدمر ثقتنا بالقوانين والنظم الادارية القائمة (١) .

اننا ونحن نؤمن بصيغة التحالف فانما تهدف الى أن يكون هذا التحالف لمصلحة الجماهير العريضة من عمال وفلاحين ومثقفين ورأس مالية وطنية منتجة ولا يكون ستارا لتحقيق مصالح الأقلية . بل أنه لكى يكون هذا التحالف مؤثرا وفعالا فمن الضرورى أن تكون على رأسه قيادة ثورية تعى دروس الماضى وتعرف حقائق الواقع ولها تصور لامكانيات المستقبل .

(*) راجع : المنبر الاشتراكى الناصرى : بيان امام لجنة العمل السياسى ، ٢٣ فبراير ١٩٧٦

(٩)

« .. الوجود القومى لا يمكن أن يصبح حيــا وسليما إلا من خلال تصميمه على تحقيق الاشتراكية .
والاشــتراكية لا يمكن أن تتحقق إلا إذا ربطت ذاتهـــا بشــكل عضــوى متماســك مع الحقــائق القائمـــة فى الأمـــة .... »

ما هو موقف الاشتراكية فى الفكر الناصرى من الأممية والانسانية ؟

إن فكرة الناصرية بارتباطها مع خلاصة الفكر الانسانى المتحرر تسهم فى اشراك الأمة العربية فى مجالات التطور الانسانى العام . ورغم أن الاشتراك فى الحياة العالمية والدولية هو قائم بفعل تطور الآلة ووسائل الانتاج ووسائل النقل ، انما الاشتراكية تحدد نوعية التفاعل التقدمية وتضمن نمو الجوانب الايجابية فى التأثر والتأثير فى هذا المجال . لأنه ليس المهم أن يكون لوطننا علاقات دولية ، إذ أن الأهم أن تؤدى علاقاتنا الدولية الى تزايد فى تحرر الشعوب ومساواتها على أساس مبادىء تقدمية واضحة تهدف الى السعادة الحقيقية للانسان والى علاقات انسانية سليمة . فالانطواء على الذات القومية لم يعد واردا فى هذا العصر ، بالاضافة الى أن الانطواء يكبت فى الأمة كما يكبت فى الفرد طاقات الانطلاق وامكانيات العطاء . ان الاشتراكية الناصرية تحدد موقف الوطن العربى فى العالم ، على أساس تمكينه من اقتحام الآفاق الجديدة واستيعابها من صهر الأفكار الجديدة وجعلها جزءا من التراث الحضارى الذى منه نستمد القوة المادية والمعنوية والتى تمكننا أن نواجه تحديات الجيل الذى نحن منه .

والاشتراكية الناصرية تعمل على أن يكون استيعاب العرب للتراث الانسانى استيعاب مركز وملتزم . وهذا يعنى أن ما نستوعبه يجب أن ينصب متفاعلا مع ما عندنا . وهذا يعنى بالتالى أن علينا أن نعرف وندقق فيما عندنا وفيما يمكن أن نعطيه للتراث الانسانى .

على ضوء هذا تسعى الاشتراكية الناصرية الى تحديد نقطة الانطلاق وضبطها وحمايتها ، حتى لا يؤدى انجذابنا الى تيارات

الفكر الانسانى الى انقطاعنا عن تراثنا القومى الذى هو فى الواقع جزء لا يتجزأ من التراث الانسانى . المشكلة التى حدثت عند بعض الاشتراكيين العرب أنهم فى انجذابهم تخلوا عن نقطة الانطلاق لوجودهم ، فكانوا رغم صحة المبادىء التى انجذبوا إليها عديمى التأثير المباشر على مجتمعاتهم ، وربط تطور مجتمعاتهم مع نمو هذه المبادىء ونجاحها . وكان من نتائج هذا الانقطاع أن بعض الاشتراكيين أعطوا مدلولا خاطئا عن الاشتراكية للجماهير والفئات التقدمية التى لها مصلحة فى نجاح الاشتراكية كنظام ومنهج للحياة . واعتقد البعض أنهم هم وحدهم القوة الاشتراكية فى الوطن العربى . والى حد كبير ظهرت الاشتراكية فى الوطن العربى معزولة عن التجربة القومية والشعبية ، وظهرت وكأنها غريبة عن حياة الشعب وأمانيه .

أدى هذا الانقطاع الى رد فعل لدى الفئات اليمينية التى حاولت أن تأخذ من هذا التزييف لمعنى الاشتراكية سلاحا يطعنون بواسطته الاشتراكية ، ليخدموا عن سوء نية أو حسن نية المآرب الرجعية والاستعمارية فى وطننا ، والتى لا يحطمها فى المدى الطويل سوى التزام علمى واع للاشتراكية حسب الواقع العربى .

وكان من جراء هذا الانفعال عند بعض الفئات اليمينية ، أن تعرضت الحركة القومية العربية الى تسرب النفعيين والانتهازيين الذين تبنوا شعاراتها المرحلية كى يضربوا حقيقة أهدافها ويحرفوا جوهر القومية العربية ومحتواها العقائدى والشعبى . فكان يظهر بين حين وآخر تيارات تقول بأن الحركة القومية يجب أن تؤجل والبحث عن النظام الذى تريد إقامته . وتيارات تقول بأن الاشتراكية تفرق بين الشعب الواحد . وفئات تقول بأن الاشتراكية

هى مظهر آخر من الفلسفة المستوردة أو المقتبسة . واقتنع بعض المخلصين بهذه التيارات التى أطلقتها الرجعية العربية فى أوساط الحركة القومية ، لعل إطلاقها يؤخر تكامل الوعى وتزايده فى الأوساط العامة .

كان لابد إزاء هذان الاتجاهان : الاتجاه الأممى للمفهوم الإشتراكى ، والاتجاه الانطوائى للقومية ، والرواسب التى تتفرع عنهما ، أن يعمل الاشتراكيون الناصريون على تصحيحها بشكل حاسم وسريع .

والتصحيح فى هذا المضمار يعنى توضيح المفهوم الاشتراكى للقومية ، وللانسانية ، وللأممية . وعندما تتوضح هذه المفاهيم يصبح بإمكاننا أن نحدد موقف الاشتراكية الناصرية منها . فالاشتراكية نتيجة اقتناع يتوصل إليه الانسان عندما يريد أن يبلور نزعته التقدمية ، وأن يحقق أمانيه الحقيقية . أما القومية فهى تعبير عن وجود قائم وعن كيان ذات خصائص معينة ومصير واحد ينتمى إليه الانسان انتماء وجوديا . الفرق إذن فى هذا المضمار بين القومية والاشتراكية بالنسبة للانسان العربى ، أن القومية هى دليل انتسابه الى كيان والى أمة ، وبالتالى ملازما لوجوده . أما الاشتراكية فلا تلازم مجرد الوجود ، ولكن تتكون نتيجة اقتناع يولده حس بمسئولية تحسين وتحرير الاطار القومى وجعله يتوافق مع مستلزمات المجتمع الأمثل . الاشتراكية نظريا هى الوجود الأمثل ومرحليا هى تحقيق الأفضل .

من هنا يتضح لنا أنه ليس هناك تناقض بين القومية والاشتراكية ، كما يدعى الأمميون والقوميون المنغلقون ، بل بالعكس فإن الوجود القومى لا يمكن أن يصبح حيا وسليما إلا من خلال تصميمه على تحقيق الاشتراكية . والاشتراكية لا يمكن أن

تتحقق إلا إذا ربطت ذاتها بشكل عضـــوى متماسك مع الحقائق القائمة فى الأمة .

ومن جهة أخرى فالاشتراكية الناصرية لا تقر أن القومية هى مذهب ، بل تصر على أنها وجود وكيان . فالقومية إذا تخطت كونها انتماء ووجود ، فإنها تهدد القيم الانسانية الــكامنة فى القومية العربية . فالقومية كمذهب فلسفى هى فلسفة مقفلة ، وهـــذا يؤدى الى إقصاء العقل عن فعاليته ، وتؤدى الى تحريك الغرائز لحماية الانعزال . فالمذهبية القومية تعتمد على نظريات عرقيـــة وطائفية ، وتجعل من الغرور القومى أداة لاثبات الوجود . وينتج عن هذا مفاهيم تشوه معنى الــكرامة القومية ، وتكبت عنـــد الشعب طاقاته لحل مشاكله الأساسية . فالمذهبية القومية ترى الشعب بشكل مبهم وكلى ، بينما الاشتراكية ترى الشعب نتيجة تفاعل أفراده . الفرق أنه بالمفهوم الاشتراكى يصبح الانســـان الخلية الأساسية للأمة ، بينما بالمفهوم القومى المذهبى المتقل يكون الانسان مجرد أداة .

يتراءى لنا من خلال هـــذا الالتباس اللفظى والفكرى الذى نتج عن الانفعال المتبادل . فالقوميـــة المذهبية استمرت بحـــكم الانفعال ضد الاشتراكية الأمميـــة . والاشتراكية الأمميـــة رأت فى القومية حق الانسان فى التفاعل مع التراث والحضارة العالميين . من هنا استرسال التياران فى اتجاههما وخطورتهما .

الاشتراكية تجـــد فى الوجود القـــومى قطاعا من الوجود الانسانى وجزء لا يتجزأ منه . ودور الاشتراكية فى هذا السبيل هو إغنـــــاء الوجود القومى وتفجير طاقاته الخيرة المبـــدعة . كمساهمة فى إغناء التراث الانسانى الذى هو بدوره حصيلة تفاعل القطاعات القومية فى العالم . الاشتراكية فى الوطن العربى تختلف

عن الاشتراكية الأممية فى هذا الموضوع ، لأنها تؤمن بأن الوحدة الانسانية كامنة فى العلاقة التلقائية بين الوحدات البشرية المتنوعة لا نتيجة فرض تجربة معينـــة مقياسا وحيدا لصحة العمـــل الاشتراكى .

الاشتراكية فى الوطن العربى تنسق التجربة العربية مع تجارب الانسان فى كل العالم . بينما الاشتراكية الأممية تربط التجـــربة العربية بتجربة تعتقد أنها أكثر تقدما ، وبالتالى لها صفات وحق القيادة . الوحدة الانسانية هى التى يشعر الانسان أنه ساهم فيها . الوحدة الأممية هى تأمين وحدة شكلية دون اعتبار لمضمون هذه الوحدة ووجودها .

الاشتراكية فى الوطن العربى تؤمن للانسان العربى أن يرى فى الانسانية نفسا من ذاته . وعندما يرى ذلك يصبح أكثر استعدادا لتقبـــل وفهم التراث الانسانى . وعندما لا يرى الانسان العربى فى التراث الانسانى انعكاسا لوجوده ، أو عندما لا تتكون الوحدة الانسانية — ولو جزئيا — من وجوده يتولد عنده مركب النقص فتضعف ثقته فى ذاته ، فيستسلم ولا يعود يعطى أو يبدع .

رقم الإيداع ٤٠٣٨ / ١٩٧٦

« .. إن تحقيق حرية الانسان تقتضى إزالة كافة القيود التى تعوق حريته سواء كانت هـذه القيود سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو ثقافية . وأن من أهم الشروط لتحقيق الحرية هو تحرر الإنسان من الفاقة والحاجة أى تحريره من الاستغلال والظلم الاجتماعى . والتحرر من الخوف بأن يشعر الإنسان بالأمان فى المجتمع الذى يعيش فيه بل عليه أيضا أن يتحرر من الجهـل حتى لا يكون عبـدا لفئة من المحظوظين الذين أتيحت لهم فرصة المعرفة ... »





دار الموقف العربى
للصحافة والنشر والتوزيع
٣٨ شارع قصر العينى ت ٢٨٢٧٩٤
ص.ب ٢٤ دواوين / القاهرة